مكتبة نوبل

١٩٤٦

سدهارتا

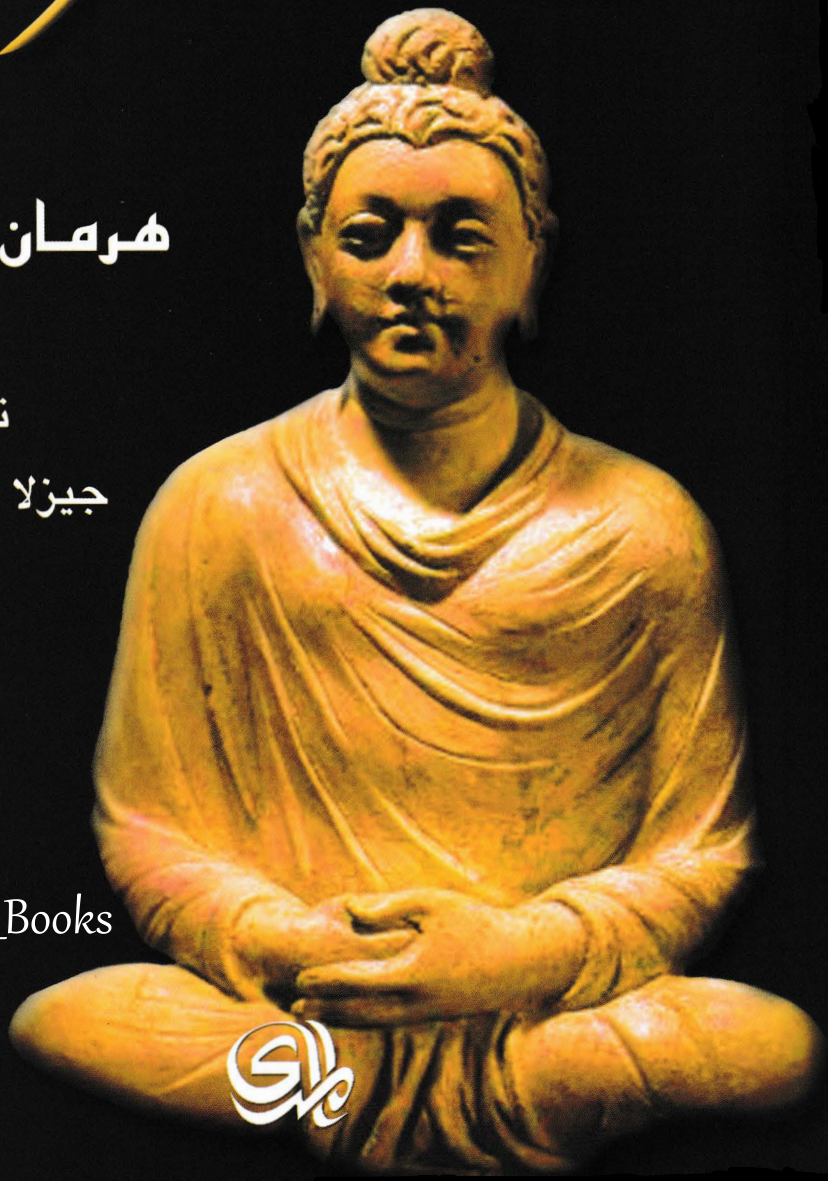

هرمان هسه

ترجمة:
جيزلا فالور حجّار

Tele: @Arab_Books

سدهارتا

Arab_Books

رواية

المؤلف: هرمان هسه
عنوان الكتاب: سدهارتا
المترجم: جيزلا فالور حجّار
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠٠٠
الطبعة الثانية: ٢٠١٣

جميع الحقوق محفوظة

Author: Hermann Hesse
Title: Siddhartha
Translator: Gisela Wallor Hajjar
Al-Mada: P.C.
First Edition: 2000
Second Edition: 2013

Copyright © Al-Mada

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت-الحمراء-شارع ليون-بناية منصور-الطابق الأول-هاتف: ٠٠٩٦١-١-٧٥٢٦١٦ تلفاكس: ٠٠٩٦١-١-٧٥٢٧١٧
www.daralmada.com Email:info@daralmada.com

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-2-84305-324-5

Arab_Books

١٩٤٦

مكتبة نوبل

هرمان هسه

سدهارتا

ترجمة: جيزلا فالور حجار

Arab_Books

الجزء الأول

Arab_Books

Arab_Books

ابن البرهمي

في ظلال الدار، في الشمس الساطعة على ضفّة النهر قرب المراكب، في ظلال غاب الساج، في ظلال شجرة التين ترعرع سدْهارتا، ابن البرهمي الوسيم، الصقر الفتي، في صحبة غوفيندا الصديق، وابن البرهمي، ترعرع. لوّحت الشمس كتفيه العاريتين على ضفّة النهر، لحظة الاستحمام، لحظة الغسل المقدّس، لحظة رفع القرابين المقدّسة. تسرّب الظلّ إلى عينيه السوداوين في غاب المانجو، لحظة لعب الصبيان، لحظة غناء الأم، لحظة رفع القرابين المقدسة، لحظة تعاليم أبيه، العالِم، لحظة حديث الحكماء. منذ زمن طويل كان سدهارتا يشارك الحكماء أحاديثهم، يتمرّن مع غوفيندا على المبارزة الكلامية، ويتمرّن مع غوفيندا على فن التأمّل، وأداء الاستغراق. بات يتقن قول الـ «أوم»، لفظ الألفاظ، بلا صوت، يقوله مع الشهيق في داخله بلا صوت، يلفظه مع الزفير بلا صوت، والنفس ساكنة والجبهة محاطة ببريق الروح الواضح الفكر. بات يعرف كيف يدرك، في عمق ذاته، اتمان، اللاهالك، المتّحد مع الكون.

رقص قلب الأب ابتهاجاً بالابن، المتعلّم، المتعطّش إلى المعرفة، وهو يراه يصير حكيماً وكاهناً عظيماً، أميراً بين البراهمة.

Arab_Books

تراقصت اللذّة في صدر أمه، وهي تراه، تراه يسير ويجلس وينهض، سدهارتا، القوي، الوسيم، السائر على رجلين رشيقتين ومحيّيها بلباقة فائقة.

داعب الحبّ قلوب بنات البراهمة الشابّات، وسدهارتا يطوف أزقّة المدينة، بجبين مشرق وعين ملوكية وخصر لدن.

لكنّ أكثرهم حبّاً له كان غوفيندا، صديقه، وابن البرهمي. كان يحبّ عين سدهارتا وصوته الرخيم، يحبّ مشيته ولياقة حركاته التامّة، يحبّ كلّ ما يفعله سدهارتا ويقول، وأكثر الأشياء التي أحبّها فيه روحه، وأفكاره العالية المتوقّدة، وإرادته المتوهّجة، وطموحه العالي. وكان غوفيندا يعلم أنّه لن يصير برهمياً كالآخرين: خادم قرابين كسولاً، متاجراً جشعاً بالطلاسم، متكلّماً صلفاً فارغاً، كاهناً شريراً خبيثاً، خروفاً طيّباً غبيّاً في قطيع الكثيرين. لا، وغوفيندا أيضاً لم يكن يريد أن يصير هكذا: برهمياً مثل عشرات الآلاف. كان يريد أن يتبع سدهارتا، المحبوب، الرائع. وإذا صار سدهارتا في يوم من الأيام إلهاً، إذا انتقل في يوم من الأيام إلى المشرقين، سيتبعه غوفيندا، صديقاً له وصاحباً، حامل رمحه وخادماً له وظلاً.

هكذا أغرم جميعهم بالسدهارتا، وهو أدخل البهجة لهم وكان لهم نشوة.

لكنّه، هو السدهارتا، لم يُدخل البهجة إلى نفسه ولم يكن ملذّة لذاته. هائماً على الدروب الوردية لحديقة التين، جالساً في الظلّ المزرق لغاب التأمّل، غاسلاً أطرافه في حمام التوبة اليومي، رافعاً القرابين في غابة المانجو الوافرة الظلال، مهذّباً في إيماءاته أتمّ تهذيب، أغرم به

Arab_Books

الجميع وصار لهم لذّة، إلاّ أنّه لم يحمل في قلبه أي بهجة. أحلام وأفكار بلا قرار كانت تداهمه، تتسرّب إليه من مياه النهر، تلمع له من نجوم الليل، تلفحه من أشعّة الشمس؛ أحلام واضطرابات للنفس كانت تلفّه دخاناً من القرابين، تهمس إليه من أبيات الريغ فيدا، ترذّ عليه من تعاليم البراهمة القدماء.

وبدأ سدهارتا يغذّي، في ذاته، امتعاضاً. بدأ يحسّ أن حبّ أبيه، وحبّ أمه، وحبّ صديقه غوفيندا أيضاً، لن يسعده دائماً وإلى أبد الآبدين، لن يشبعه ويرويه ويرضيه. بدأ يتوجّس أن أباه الجليل ومعلّميه الآخرين والبراهمة الحكماء قد أخبروه جلّ حكمتهم وأفضلها، وأنّهم صبّوا غزارتهم في إنائه المنتظر، لكنّ الإناء لا يمتلئ، والروح لا يرضى، والنفس لا تهدأ، والقلب لا يرتوي. جيدة هي الأغسال، لكنّها ماء، ولا تطهّر من الخطيئة، لا تروي عطش الروح، لا تبدّد خيفة القلب. رائعة هي القرابين ومناجاة الآلهة -لكن، هل هذا كلّ شيء؟ أتمنح القرابين السعادة؟ وما شأن الآلهة؟ أكان براجاباتي حقّاً ذا الذي خلق الكون؟ ألم يخلقه اتمان، هو، الوحيد الأوحد الكلّي؟ أليست الآلهة هيئات، مخلوقات مثلي ومثلك، خاضعة للزمان وفانية؟ وهل التضحية للآلهة إذن حسنة، هل هي صواب، هل هي فعل عاقل وأسمى؟ ولمن غيره، هو، الواحد، الاتمان، يجب رفع القرابين وإزجاء الإجلال؟ أين يمكن العثور على أتمان، أين يسكن هو، أين ينبض قلبه السرمدي، إن لم يكن في أنا الفرد نفسه، في الباطني، في ما لا يُهدم، الذي يحمله كلّ فرد في داخله؟ لكن، أين هو هذا الأنا، هذا الباطني، هذا الأخير؟ ليس لحماً ولا دماً، ليس فكراً ولا وعياً، هكذا يعلّم أكثر الحكماء حكمة. أين، أين هو

Arab_Books

إذن؟ النفاذ إلى هناك، إلى الأنا، إلى الذات، إلى أتمان -أمن درب آخر، يجب البحث عنه؟ آه، ولا أحد يدلّ على هذا الدرب، لا أحد يعرفه، لا الأب، ولا المعلّمين والحكماء، ولا أغاني التضحية المقدّسة! يعرفون كلّ شيء، البراهمة بكتبهم المقدّسة، يعرفون كلّ شيء، وكلّ شيء، بل أكثر أيضاً، موضع اهتمامهم: خلق العالم، نشوء الكلام والطعام والشهيق والزفير، أنظمة الحواسّ وأفعال الآلهة -يعرفون أموراً لا نهاية لها- لكن، أمن قيمة في معرفة كل ذلك، إذا ما جهل المرء الأمر الأهمّ، الأمر الوحيد المهمّ؟

صحيح أن أبياتاً كثيرة في الكتب المقدّسة، وبخاصة في الأبانيشاد، لسمافيدا، تتكلّم على هذا الباطني الأخير، وأبيات رائعة هي. «إن نفسك هي العالم كلّه»، كُتب هناك، وكُتب أنّ الإنسان ينتقل في النوم، في النوم العميق، إلى باطنه ويسكن في أتمان. حكمة رائعة مدوّنة في هذه الأبيات، معرفة الحكماء كلّها مدوّنة فيها، مجتمعة في كلمات سحرية، نقية، مثل عسل تجمعه النحل. لا، لا يستهان بالمعرفة العظيمة المجتمعة فيها والمحفوظة على يد سلالات لا تحصى من البراهمة الحكماء. -لكن، أين البراهمة، أين الكهنة، أين الحكماء والتائبون الذين نجحوا، لا في علمان هذا العلم الأعمق وحسب، بل في عيشه؟ أين العليم الذي ينقل الركون في أتمان، بنقلة سحرية، من النوم إلى اليقظة، إلى الحياة، إلى الرواح والغدو، إلى القول والفعل؟ كان سدهارتا يعرف من البراهمة الأجلاّء كثراً، وأولهم والده، النقي، العليم، الجليل العلي. وهو حقاً جدير بالإعجاب: إيماءاته هادئة ونبيلة، حياته طاهرة، كلمته حكيمة، وخلف جبينه ترقد الأفكار اللطيفة والسامية -لكنّه، هو الآخر،

Arab_Books

هو العالِم بأمور كثيرة، أيعيش حقّاً في غبطة، ونال السلام؟ أليس، هو الآخر، مجرّد باحث، مجرّد متعطّش؟ أليس عليه أن ينهل، هو الظمآن، مرّة تلو أخرى، من الينابيع المقدّسة، من القرابين والكتب، وحوار البراهمة؟ لماذا عليه، هو الطاهر، أن يغسل الخطيئة كلّ يوم، أن يسعى كلّ يوم إلى الطهارة، كلّ يوم عوداً على بدء؟ أليس أتمان فيه، ألا يجري في قلبه الينبوع البدئي؟ عليه هو يجب العثور، على الينبوع البدئي في الأنا، هو ما يجب حيازته! وأي شيء، دون ذلك، بحث هو وتيه وضلال.

هكذا دارت أفكار سدهارتا، هذا كان ظمأه، كان ألمه.

أحياناً كثيرة كان يردّد في سرّه كلمات من أبانيشاد شانْدوغيا تقول: «إنّ اسم البراهمان هو زاتْيام -حقّاً، من يعلم ذلك، ينتقل كلّ يوم إلى العالم السموي». وأحياناً كثيرة حسب نفسه قريباً منه، من ذاك العالم السموي. لكن، ولا مرّة تمكّن من بلوغه تماماً، ولا مرّة روى العطش الأخير. وبين كلّ الحكماء، وأكثر الحكماء حكمة، الذين كان يعرفهم ويتتلمذ عليهم، بينهم جميعاً، لم يكن من بلغه تماماً، ذاك العالم السموي، ورواه تماماً، العطش الأبدي.

«غوفيندا -قال سدهارتا لصديقه- غوفيندا، العزيز، تعال معي إلى شجرة البنْيانا، لنسلم للاستغراق».

فذهبا إلى شجرة البنيانا، وجلسا، هنا سدهارتا، وعلى بعد عشرين خطوة غوفيندا. وحين جلس سدهارتا، متأهّباً لقول الـ «أوم»، ردّد خافتاً البيت:

«أُوم قوس، والسهم هو النفس،
هدف السهم: البراهمان،
فليصبه المرء على الدوام.»

Arab_Books

وحين تسرّب وقت تمرين الاستغراق المعهود، نهض غوفنيدا، كان المساء قد حلّ، فحان موعد أداء الغسل في الساعة المسائية. نادى اسم سدهارتا. سدهارتا لم يجب. جلس سدهارتا، مستغرقاً، وعيناه مثبّتتان على هدف بعيد جداً، ورأس لسانه بارز قليلاً من بين أسنانه؛ بدا عليه أنّه لا يتنفّس. هكذا جلس، متلفّعاً بالاستغراق، مفكّراً: أُوم. مطلقاً نفْسه سهماً نحو البراهمان.

منذ زمن قد طاف في أرجاء مدينة سدهارتا معشر من السمانيين، نسّاك حجّاج. ثلاثة رجال هزلاء وخائبين كانوا، لا كهول ولا شباب، بأكتاف غبراء دامية. شبه عراة، مكتوين بالشمس ومحاطين بالوحشة، غرباء ومعرضين عن العالم كانوا، أغراباً وبنات آوى نحلاء في ملكوت البشر. وفي أعقابهم هبّت، ساخنة، رائحة عابقة بالشغف الصامت، والتعبّد الهادم، ونكران الذات العديم الشفقة.

في المساء، بعد ساعة التأمّل، قال سدهارتا لغوفيندا: «فجر الغد، يا صديقي، سيذهب سدهارتا إلى السمانيين. سيصبح واحداً منهم.»

شحب غوفيندا، إذ سمع الكلمات وقرأ، على ملامح صديقه الساكنة، القرار اللامحيد عنه، ندّ السهم المنطلق من القوس. وعلى الفور، على النظرة الأولى، عرف غوفيندا: آن الأوان لسدهارتا أن يسير في دربه، آن لمصيره أن يبدأ ينبت، ومعه مصيري. فشحب شحوب قشرة موز يابسة.

صاح: «آه يا سدهارتا، أيسمح لك أبوك بذلك؟»

نظر إليه سدهارتا، من الجهة المقابلة، كالمستيقظ. بسرعة سهم قرأ ما في نفس غوفيندا، قرأ الخوف، قرأ التفاني.

Arab_Books

«آه، يا غوفيندا -قال هامساً- لا تدعنا نسرف في الكلام. غداً، مع طلوع الفجر، سأبدأ حياة السمانيين. لا تقل المزيد.»

دخل سدهارتا الحجرة التي جلس فيها أبوه على بساط من اللحاء، فدنا من أبيه وتوقّف خلفه، إلى أن أحس أبوه أن أحدهم واقف خلفه. قال البرهمي: «أهذا أنت، ياسدهارتا؟ قل لي إذن، ماذا جئت تقول.»

وسدهارتا قال: «بإذنك، يا أبي. جئت أقول لك إني راغب في مغادرة بيتك، غداً، والالتحاق بالنسّاك. مرامي هو أن أصير سمانياً. ليكن والدي غير معارض.»

صمت البرهمي، وطال صمته، حتى أنّ النجوم، في النافذة الصغيرة، سارت مسارها وغيّرت مواقعها، قبل أن يضع الصمت، في الحجرة، وزره. صامتاً وبلا حراك وقف الابن، مكتوف اليدين؛ صامتاً وبلا حراك جلس الأب على البساط، والنجوم تسير في السماء. ثم قال الأب: «لا يليق بالبرهمي أن يقول كلمات حادّة وغاضبة. لكنّ الامتعاض يملأ قلبي. ولست براغب في سماع هذا الطلب مرّة ثانية من فمك».

بتأنّ نهض البرهمي، وسدهارتا تحجّر صامتاً، مكتوف اليدين.

«ماذا تنتظر؟» سأل الأب.

«تعلم»، قال سدهارتا.

بامتعاض خرج الأب من الحجرة، وبامتعاض أقبل على فراشه واضطجع.

مضت ساعة ولم يراوده النوم، فنهض البرهمي، خطا بضع خطوات يروح ويجيء، فخرج من الدار. عبر شبّاك الحجرة الصغير نظر إلى

Arab_Books

الداخل، رأى سدهارتا واقفاً فيها. مكتوف اليدين، واقفاً محلّه. شاحباً تلألأ رداؤه الفاتح اللون. بقلب قلق عاد الأب إلى فراشه.

مضت ساعة أخرى ولم يراوده النوم، فنهض البرهمي، خطا بضع خطوات يروح ويجيء، فخرج من الدار، فرأى أنّ القمر قد طلع. عبر شبّاك الحجرة نظر إلى الداخل، وإذا بسدهارتا واقف مكانه، مكتوف اليدين، وعلى ساقيه العاريتين يتلألأ ضوء القمر. بقلب مهموم انصرف الأب إلى فراشه.

ثم عاد أيضاً بعد ساعة وبعد ساعتين، يحدّق عبر النافذة الصغيرة، يرى سدهارتا واقفاً، في ضوء القمر، في بريق النجوم، في الظلام.

وهكذا ظلّ يعود، من ساعة إلى أخرى، صامتاً، ينظر إلى الحجرة، يرى الواقف مكانه، فيملأ قلبَه غضباً، يملأ قلبه قلقاً، يملأ قلبه مضضاً، يملؤه أسى.

وفي ساعة الليل الأخيرة، وقبل أن يبزغ النهار، عاد أيضاً، دخل الحجرة، رأى الشاب واقفاً، فبدا له طويل القامة وكالغريب.

قال: «سدهارتا، ماذا تنتظر؟»

«تعلم.»

«وهل تظلّ واقفاً هكذا منتظراً، إلى أن يطلع الصباح، ويليه الظهر والمساء؟»

«سأبقى واقفاً، انتظر.»

«ستتعب، يا سدهارتا.»

«سأتعب.»

«ستغفو، سدهارتا.»

«لن أغفو.»

Arab_Books

«ستموت، يا سدهارتا.»

«سأموت.»

«وهل تفضّل الموت على طاعة أبيك؟»

«أطاع سدهارتا أباه دائماً.»

«ستعدل إذن عما أزمعت عليه؟»

«سيفعل سدهارتا ما يقوله أبوه.»

انسلّ إلى الحجرة أوّل خيط لوهج النهار. رأى البرهمي أنّ ركبتي سدهارتا ترتعشان قليلاً. في وجه سدهارتا لم ير ارتعاشة، بل عينين تنظران إلى البعيد. فأدرك الأب أن سدهارتا لم يعد مقيماً عنده، لم يعد في الدار والوطن، وأنّه قد غادره.

لمس الأب كتف سدهارتا.

قال: «ستذهب إلى الغابة وتكون سمانياً. إن وجدت الغبطة في الغابة، فتعال وعلّمني الغبطة. وإن وجدت الخيبة، فارجع، ودعنا نرفع القرابين معاً، كما كنّا نفعل. اذهب الآن وقبّل أمك. قل لها إلى أين ستذهب. أما أنا، فعليّ الذهاب إلى النهر، فقد حان موعد الغسل الأول.»

سحب يده من كتف ابنه وخرج. ترنّح سدهارتا حين حاول أن يسير. غالب أطرافه، انحنى أمام أبيه وذهب إلى الأم، ليقوم بما قال الأب.

وحينما غادر مع أول ضوء المدينة الهادئة بعدْ، سائراً ببطء على رجلين مخدّرتين، نهض، عند آخر كوخ، ظلُّ كان جاثماً هناك والتحق بالحاجّ... غوفيندا.

«جئتَ»، قال سدهارتا مبتسماً.

«جئتُ»، قال غوفيندا.

Arab_Books

Arab_Books

عند السمانيين

في مساء اليوم نفسه، لحقا بالنسّاك، السمانيين الهزلاء، وعرضا عليهم الصحبة والطاعة. فقبلوهما.

أهدى سدهارتا ثوبه لبرهمي فقير في الشارع. صار يلبس الوزرة فقط والرداء الترابي اللون، غير المخيّط. صار يأكل كلّ يوم مرّة واحدة فقط، وامتنع عن المطبوخ. صام خمسة عشر يوماً.وصام ثمانية وعشرين يوماً. تضاءل اللحم في فخذيه وخدّيه. توهّجت أحلام حارّة في عينيه المكبّرتين، طالت الأظافر في أصابعه الذابلة، وعلى ذقنه اللحية الجافّة المشعّثة. باردةً كالثلج بدت نظراته إن وقعت على النسوة؛ وفمه رجف احتقاراً إن عبر مدينة بها أناس في لباس أنيق. شاهد تجّاراً يتاجرون، أمراء يصيدون، متألّمين يبكون موتاهم، بغايا يعرضن أنفسهن، أطبّاء يسعفون المرضى، كهنة يحدّدون موعد البذار، عشّاقاً يعشقون، أمهات يرضعن أطفالهن -وهذا كلّه لم يستحقّ من عينيه نظرة، كلّه يكذب، كلّه ينتن، كلّه يعبق بالكذب، كلّه يخدع، يتظاهر بالمعنى والسعادة والجمال، وكلّه نتنٌ غير مقرٍّ به. ومرٌّ مذاق الدنيا وعذابٌ الحياة.

كان لسدهارتا هدف واحد، هدف وحيد: أنْ يمسي خالياً. خالياً من

Arab_Books

العطش، خالياً من الرغبة، خالياً من الحلم، خالياً من الفرح والألم. أنْ يفارق نفسه، ولا يعود يكون أنا، أنْ يجد السكينة خالي القلب، وينفتح للمعجزة في تفكير ينكر الذات -هذا كان هدفه. فإذا غالب الأنا كلّه وأماته، إذا أصمت كلَّ ما في القلب من شهوة ونزوة، فلا بد من أن يستيقظ الأخير، المكنون في الذات، الذي لا يعود ذاتاً ولا أنا، السرّ كلّ السرّ.

صامتاً وقف سدهارتا في لهيب الشمس العمودية، يلتاع ألماً، يلتاع عطشاً، وظلّ واقفاً إلى أن بات، لا بالألم ولابالعطش، يحسّ. صامتاً وقف في موسم الأمطار، ومن شعره ينهمر الماء على الكتفين الراجفتين برداً، على الخاصرتين والساقين الراجفتين، والتائب يظلّ واقفاً إلى أن تكفّ الكتفان والساقان عن الرجف برداً، إلى أن تصمت، إلى أن تهدأ. صامتاً جثم في شجيرات الشوك، ومن البشرة الملتهبة يقطر الدم، ومن القروح الصديد، وسدهاوتا يمكث جامداً، يمكث بلا حراك، إلى أن يكفّ الدم عن السيل، إلى أن يزول الوخز، إلى أن يسكن اللسع ويغيب.

جلس سدهارتا مستقيماً، وتعلّم أن يوفّر الأنفاس، تعلّم أن يصمد بالقليل من النفس، ويمسك الأنفاس. تعلّم أن يهدّئ نبض قلبه، بادئاً بالتنفّس، وأن يخفّض دقّات قلبه إلى أن خفتت وتضاءلت.

لدى كبير السمانيين تلقّى سدهارتا دروساً، تمرّن على نكران الذات، وتمرّن على الاستغراق، وفق تعاليم السمانيين الجديدة عليه. مرّة، حلّق فوق غابة البامبو بلشون -فأوعى سدهارتا البلشون في نفسه، وحلّق فوق الغابات والجبال. كان بلشوناً، والتهم السمك، وجاع جوع البلشون، ونعق نعيقه، ومات موته. ومرّة أخرى، رقد على الشاطئ الرملي ابن آوى

Arab_Books

ميت، فانسلّت نفْس سدهارتا إلى الجثّة، صارت ابن آوى ميتاً، واضطجعت على الشاطئ، وترهّلت، ونتنت، وعفنت، صارت فريسةً الضباعُ تنهشها، وفريسةً الصقورُ تسلخها، أمست هيكلاً، وأمست غباراً، وتناثرت في الأرجاء. وعادت نفس سدهارتا، بعد موت، بعد تعفّن، بعد تناثر، عادت بعد أن ذاقت الخمار العكر لدورة الأحياء، لتمكث في عطش جديد، متربّصة مثل صياد، الكوة التي تتيحها الإفلات من الدورة، والتي تبدأ بها نهاية الأسباب، الأبدية الخالية من الآلام. قتل حواسّه، قتل ذاكرته، انسلّ من أناه إلى ألف هيئة غريبة، كان حيواناً، كان جيفة، كان حجراً، كان خشباً، كان ماء، وكلّ مرّة استعاد نفسه مستيقظاً، والشمس تشرق أو القمر يطلّ، وعاد إلى كونه أنا، يترنّح في الدورة، يحسّ بالعطش، يغالب العطش، فيحسّ بعطش جديد.

تعلّم سدهارتا لدى السمانيين أموراً كثيرة، تعلّم سلك دروب عديدة للابتعاد عن الأنا. سلك درب نكران الذات بالألم، تكبُّد الألم طوعاً، والجوع والعطش والتعب، وجالده. سلك درب نكران الذات بالتأمّل، بالتفكير الذي يفرّغ الحسّ من أيّ تصوّرات. هذه الدروب وغيرها تعلّم ولوجها، ألف مرّة هاجر أناه، لساعات وأيام مكث في اللاأنا. لكن، مهما بعدت به الدروب عن الأنا، فنهايتها ترجعه إلى الأنا أبداً. كان لا بدّ من العودة، وإن فرّ سدهارتا من الأنا ألف مرّة، وسكن في العدم، سكن في الحيوان، سكن في الحجر؛ كان لا مناصّ من الساعة التي يستعيد فيها نفسه، في ضوء الشمس أو في وهج القمر، في الظلّ أو في المطر، فيعود يكون «أنا»، يكون سدهارتا، ويعود يحسّ بعذاب الدورة المفروضة.

Arab_Books

في جواره عاش غوفيندا، ظلاً له. سلك الدروب نفسها، وتكبّد الجهود نفسها. قلّما تحدّثا، إلاّ فيما يتطلّبه التعبّد والتمرين. بين حين وآخر، جال الاثنان القرى ليستجديا طعاماً لهما وللمعلّمين.

وذات يوم، إبان جولة من جولات الاستجداء، قال سدهارتا: «ما رأيك يا غوفيندا، هل ترانا نتقدّم؟ هل من أهداف بلغناها؟»

أجاب غوفيندا: «تعلّمنا، وما زلنا نتعلّم. ستكون سمانياً عظيماً، يا سدهارتا. سريعاً تعلّمت كلّ تمرين، كثيراً ما نظر إليك السمانيون القدماء بعين الإعجاب. ستكون، ذات يوم، قديساً، أيها السدهارتا.»

قال سدهارتا: «لا أرى الأمر على هذا النحو، يا صديقي. كان يمكن لي، يا غوفيندا، أن أتعلّم، ما تعلّمت من السمانيين إلى اليوم، على طرق بسيطة وسهلة النهج. في أي حانة، يا صديقي، في حي من أحياء البغايا، بين سائقي العربات ولاعبي النرد، كان يمكن لي أن أتعلّمه.»

قال غوفيندا: «لا ريب أن سدهارتا يعابثني. إذ كيف كنت ستتعلّم الاستغراق، وإمساك الأنفاس ومجالدة الجوع والألم، هناك، عند أولئك البؤساء؟»

فقال سدهارتا هامساً، كما لو أنّه يكلّم نفسه: «ما هو الاستغراق وهجر الجسد؟ ما الصوم وإمساك الأنفاس؟ إنه هروب من الأنا، فرار عابر من عذاب كينونة الذات، يغيّب برهة عن ألم الحياة ولامعناها. والفرار نفسه، التخدّر الموقّت نفسه، في متناول راعي الثيران، حين يشرب في الحانة بضعة أكواب من خمر الأرز أو حليب جوز الهند المخمّر. فلا يعود يحسّ بذاته، لا يعود يحسّ بآلام الحياة، ويغرق في تخدّر قصير. وحين يغفو بعد ارتشاف كوب الخمر، يجد ما يجده سدهارتا

Arab_Books

وغوفيندا، لحظة الفرار من الجسد، بعد تمرين طويل، لحظة المكوث في اللاأنا. صدّقني، يا غوفيندا!»

«تقول هذا، أيها الصديق، وأنت تعلم أنّ سدهارتا ليس راعي ثيران، وأن السماني ليس سكيراً. صحيح أن الشارب ينال تخدّراً، ينال تغيّباً عابراً واستراحة، لكنّه يعود من النشوة ويجد الأمور على حالها، وهو لا يزداد حكمة، لا يكتسب معرفة، لا يرتقي بدرجات.»

وقال سدهارتا مبتسماً: «لا أعلم، لم أكن يوماً سكيراً. لكنّي أعلم، أنني، أنا سدهارتا، لا أنال سوى عابر التخدّر، بتمريني واستغراقي، وإنني أبعد عن الحكمة وعن الخلاص، بقدر ما بعدتُ عنهما حين كنت جنيناً في رحم الأم، أعلم هذا، أيها الغوفيندا، أعلم.»

ومرة أخرى، إذ غادر سدهارتا الغابة في صحبة غوفيندا، ليستجديا من القرية قليلاً من الطعام للإخوان والمعلّمين، بادر سدهارتا يقول: «قل لي، يا غوفيندا، أترانا على الدرب السليم؟ هل ندنو من المعرفة؟ هل ندنو من الخلاص؟ أم ترانا ندور في دائرة -نحن، اللذين أردنا الإفلات من الدوران في الدورة؟»

قال غوفيندا: «تعلمنا الكثير، يا سدهارتا، ومازال أمامنا الكثير. لا ندور في دائرة، بل نرتقي، فالدائرة حلزونية، وربّ درجة ارتقينا.»

أجاب سدهارتا: «ما رأيك، كم عمر كبير السمانيين، معلّمنا الجليل؟»

أجاب غوفيندا: «قد يناهز كبيرنا الستين عاماً.»

وقال سدهارتا: «ذرّف على الستين من العمر، ولم يبلغ نيرفانا. وسيصير في السبعين والثمانين. وأنا وأنت، سنبلغ العمر نفسه ونتمرّن،

Arab_Books

ونصوم ونتأمّل. لكنّنا لن نبلغ نيرفانا، لا هو ولا نحن. آه يا غوفيندا، أعتقد أنّ بين السمانيين جميعاً، ربّما، ما من أحد، ما من أحد يبلغ النيرفانا. إنّنا نجد تعزية، ونجد تخدّراً. نتعلّم التفنّن في التحايل على أنفسنا. لكنّ الجوهري، درب الدروب، لا نهتدي إليه.»

قال غوفيندا: «ليتك لا تتلفّظ بهذه الكلمات المفزعة، يا سدهارتا! وكيف لا يكون بين هذه الجموع الوفيرة من الرجال العلماء والبراهمة، من السمانيين الصارمين الأجلاء، من الرجال الباحثين، المتفانين، القديسين، كيف لا يكون بينهم، من يهتدي إلى درب الدروب؟»

لكنّ سدهارتا قال بنبرة فيها من الحزن بقدر ما فيها من التهكّم، بنبرة خافتة، حزينة قليلاً، متهكّمة قليلاً: «قريباً، يا غوفيندا، سيترك صديقك هذا الدرب السماني، الذي طالما سلكه في صحبتك. إنّي أذوب عطشاً، يا غوفيندا، وعلى هذا الدرب السماني الطويل لم يخفّ عطشي ولم يتبدّد. كنت دائماً متعطّشاً إلى المعرفة، دائماً مليئاً بالأسئلة. سألت البراهمة، عاماً بعد عام، سألت الفيدا المقدّسة، عاماً بعد عام. وأرجّح، يا غوفيندا، لو سألت طير الكركدن أو قرد الشمبانزي، لما اختلف الأمر معي، لحصلت على النتيجة نفسها وعلى نفس القدر من الأجوبة المفيدة والشافية. يا غوفيندا، طال بي الزمن -ولم ينته بعد- حتى تعلّمت: إن المرء لا يستطيع أن يتعلّم شيئاً! لا وجود، على ما أعتقد، لذلك الشيء الذي نسمّيه «التعلّم». لا يوجد، أيها الصديق، سوى العلم، وهو في كلّ مكان، هو «أتمان»، هو فيّ، وفيك وفي كلّ كائن. وهكذا بدأت أعتقد: ليس لهذا العلم عدو ألد من طلب العلم، من التعلم.»

Arab_Books

عند ذاك تسمّر غوفيندا في الطريق، رفع يديه وقال: «ليتك لا تخيف صديقك بمثل هذا الكلام، يا سدهارتا! فكلماتك حقّاً تلقي الخوف في قلبي. وفكّرْ أيضاً في هذا: أين قدسية الصلوات، أين جلالة البراهمة، أين قدسية السمانيين، لو كان الأمر، كما قلتَ، لو لم يكن من تعلُّم؟! وماذا، أيها السدهارتا، ماذا يكون مصير كلّ ما هو مقدّس على الأرض، مصير كلّ ذي قيمة وجلالة؟!»

وغمغم غوفيندا بيتاً من الشعر، بيتاً من الأبانيشاد:

«من يستغرق في أتمان، مطهَّر الروح، متفكّراً ينل غبطة، لا يرقى إليها الكلام.»

أمّا سدهارتا فصمت. فكّر في الكلمات التي قالها له غوفيندا، وفكّر الكلمات إلى منتهاها.

نعم -فكّر، واقفاً محنيّ الهامة- ما الذي يبقى من كلّ ما يبدو لنا مقدّساً؟ ما الذي يدوم؟ ما الذي يبقى صالحاً؟ فهزّ رأسه.

ذات يوم، بعد أن قضى الشابان ما يقرب من ثلاث سنوات لدى السمانيين وشاطراهم تمارينهم، بلغهما على طرق والتفافات عديدة، خبر، إشاعة، أسطورة: أنّ واحداً ظهر، اسمه غوتاما، المتعالي، البوذا، وهو قد غلب آلام العالم في ذاته، وأوقف عجلة الولادات المتكرّرة. يجوب البلاد، معلّماً، محاطاً بالتلاميذ، لا ملك له ولا وطن ولا امرأة، ملتفحاً ببرد الناسك الأصفر، إنما منشرح الجبين كالمغبوط، فينحني أمامه البراهمة والأمراء ويطلبون علمه.

سُمع رنين هذه الأسطورة، هذه الإشاعة، هذه الخرافة، هنا وهناك، وفاح شذاها؛ في المدن تناقلها البراهمة وفي الغابات السمانيون، ومرّة

Arab_Books

أخرى طرق اسم غوتاما، البوذا، آذان الشابّين، في الخير والشرّ، في المدح والقدح.

وكما يحدث حين يعمّ الطاعون بلداً من البلدان، فيُشاع خبر يقول أنَّ هناك رجلاً، عليماً، حكيماً، تكفي كلمته ونفحته لإشفاء كلّ مصاب بالوباء، وكما يجتاح هذا الخبر، من ثمّ، البلاد، فيتداوله الناس كلّهم، منهم من يصدّق، ومنهم من يشكّ، ومنهم كثيرون ينطلقون، بلا تلكّؤ، ليؤمّوا الحكيم المسعف؛ كذلك اجتاحت البلاد تلك الأسطورة المتضوّعة، أسطورة غوتاما، البوذا، الحكيم من سلالة الساكيا. قال المؤمنون إنه يملك المعرفة العليا، ويتذكّر حيواته السابقة، إنه بلغ نيرفانا ولا يعود إلى الدورة يوماً، لا يعود يغوص البتّة في سيل التشكّلات العكر. وقالوا فيه الكثير، روائع وخوارق: صنع المعجزات، انتصر على الشيطان، كلّم الآلهة. أما خصومه والكفّار، فقالوا إن هذا الغوتاما غاو صلف، يمضي أيّامه في رخاء العيش، مزدرياً القرابين، جاهلاً التمرين وإماتة الجسد، وإن لا علم له.

كان رنين أسطورة البوذا عذباً، تضوّع من هذه الروايات شذا السحر. والعالم مريض، والحياة صعبة الاحتمال -وها هو الينبوع، يتدفّق، ها هو، نداء مناد يدوّي معزّياً، رحيماً، ناضحاً بالوعود النبيلة. وأينما تردّد صدى إشاعة البوذا، في أي مكان من بلاد الهند، أرهف الشبّان السمع، وأحسّوا بالشوق وبالأمل. وفي المدن والقرى، رحّب أبناء البراهمة بكلّ حاجّ وغريب يحمل خبراً عنه، المتعالي، من سلالة الساكيا.

نمت الأسطورة إلى السمانيين في الغابة أيضاً، نمت إلى سدهارتا وغوفيندا، بطيئة، قطرة قطرة، وكلّ قطرة ناضحة بالأمل، كلّ قطرة

Arab_Books

مثقلة بالشكّ. قلّما تحدّثا في الأمر، لأنّ كبير السمانيين لم يكن صديقاً لهذه الأسطورة. وهو قد سمع أنّ ذلك البوذا المزعوم كان فيما مضى زاهداً وعاش في الغابة، ثم ارتدّ إلى رخاء العيش والمتعة الدنيوية، فلم يكن حسن الظن بالغوتاما هذا.

مرّة قال غوفيندا لصديقه: «آه يا سدهارتا. اليوم كنتُ في القرية، فدعاني برهمي لدخول داره، وكان في داره ابن برهمي من ماغادا، وهذا الأخير رأى البوذا بأمّ عينه، وسمعه يعلّم. حقّاً، لحظتذاك آلمني النفَس في صدري وقلتُ في سرّي: ليتني... ليتنا، نحن الاثنين، أنا وسدهارتا، نرى الساعة التي نسمع فيها التعاليم من فم ذلك المكتمل! قل، أيها الصديق، ألا نذهب إلى هناك ونستمع إلى التعاليم من فم البوذا؟»

قال سدهارتا: «دائماً، يا غوفيندا، اعتقدتُ أنّ غوفيندا سيبقى عند السمانيين، دائماً اعتقدت أنّ هدفه هو أن يصير في الستين والسبعين من عمره ويظلّ يزاول الفنون والتمارين التي تزيّن السماني. وإذا بي أكتشف أنّ معرفتي بغوفيندا، وبما في قلبه، لضئيلة. والآن، أيها العزيز، تريد إذن أن تنهج طريقاً وتذهب إلى حيث يعلن البوذا تعاليمه.»

قال غوفيندا: «يحلو لك التهكّم. فليكن لك ما تشاء، يا سدهارتا! لكن، ألم يستيقظ في نفسك أيضاً توق ورغبة في سماع هذه التعاليم؟ ألم تقل لي مرة أنّك لن تستمرّ طويلاً في درب السمانيين؟»

عند ذاك ضحك سدهارتا، على طريقته، فشفّت نبرة صوته عن ظلّ من الحزن وظلّ من التهكّم، قال: «أحسنت يا غوفيندا، أحسنت الكلام، ذاكرتك لا تخونك. فلتتذكّر أيضاً الأمر الآخر الذي سمعتَه منّي أي أنّي

Arab_Books

صرت أرتاب بالتعاليم والتعلّم وملتله، وأنّ إيماني بالكلمات، التي تأتينا من المعلّمين، لضئيل. لكن، هلمّ، أيها العزيز، مستعدّ أنا لسماع تلك التعاليم، وإن قال لي قلبي إنّنا قد ذقنا أفضل ثمرة من ثمار هذه التعاليم. »

فقال غوفيندا: «إن استعدادك يفرح قلبي. لكن، قل لي، كيف يمكن ذلك؟ كيف يمكن لنا أن نكون قد ذقنا أفضل ثمار تعاليم الغوتاما، قبل أن نستمع إليها؟ »

قال سدهارتا: «لنتمتّع الآن بمذاق الثمرة هذه ولندع الباقي للغد، يا غوفيندا! وهذه الثمرة، التي ندين بها للغوتاما، منذ اللحظة، هي رحيلنا عن السمانيين، تابعين نداءه! أمّا ما إذا كان لديه شيء آخر وأفضل يمنحنا إياه، فهذا أمر، أيها الصديق، لننتظره بقلب مطمئن. »

وفي النهار نفسه أخبر سدهارتا كبير السمانيين بأنّه قرّر مغادرته. أخبر الشيخ بلباقة وتواضع، كما يليق بالأصغر سنّاً والتلميذ. لكنّ السماني غضب من رغبة الشابين في مغادرته، فتكلّم رافعاً صوته بأغلظ الشتائم.

فزع غوفيندا وأحرج. لكنّ سدهارتا أحنى فمه على أذن غوفيندا وهمس: «الآن سأري العجوز، أنّي استفدت من تعليمه. »

وإذ انتصب أمام السماني، بنفْس ساكنة، التقط نظرة العجوز بنظراته. عزّم عليه، وأصمته، وسيّره، وأخضعه لإرادته، وأمره أن يقوم صامتاً بما يطلب إليه. فصمت الرجل الكهل، وجحظت عيناه، وشُلّت إرادته، وتدلّت ذراعاه. فقد استسلم دون إرادة لسحر سدهارتا. أما أفكار سدهارتا فتملّكت السماني، وكان لا مناصّ من أن ينفّذ ما تمليه

Arab_Books

عليه. وهكذا انحنى العجوز عدّة مرّات، وتلفّظ متلعثماً بتمنيّات تقية للرحلة وأدّى إيماءات مباركة. ردّ الشابان شاكرين على الانحناءات ورداً على التمنيّات، وبتحية وداع رحلا.

في الطريق قال غوفندا: «آه يا سدهارتا، لقد تعلّمت لدى السمانيين أكثر مما ظننْت. فمن الصعب، من الصعب جداً أن يسحر المرء سمانياً عجوزاً. حقّاً، لو مكثتَ هناك، لتعلّمتَ بعدَ حينٍ أنْ تسير على الماء.»

«لستُ أروم السير على الماء -قال سدهارتا- أدع فنوناً من هذا القبيل لسمانيين كهّل، فليرضوا بها.»

Arab_Books

Arab_Books

غوتاما

في مدينة سافاتي عرف كلّ طفل اسم البوذا المتعالي، وفي كلّ دار كانوا على استعداد للترحيب بتلاميذ غوتاما، ولملء صحفة الصدقات للمستجدين في صمت. في جوار المدينة وقع مقام غوتاما المفضّل، البستان بيتافانا الذي قدّمه التاجر الغني أناثابنديكا -واحد من عبّاد المتعالي المخلصين- هدية له ولأتباعه.

إلى هذه المنطقة دلّت الروايات والأجوبة التي كانت من نصيب الزاهدين الشابّين أثناء بحثهما عن مقام غوتاما. وحال وصولهما إلى سافاتي، وفي أوّل دار توقّفا أمام بابه مستجديين، قُدّم إليهما الطعام، فقبلا الطعام وسدهارتا سأل المرأة التي ناولتهما الوجبة:

«نودّ أن نعلم، أيتها المحسنة، أين يقيم البوذا الجليل، لأنّنا سمانيان من الغابة وجئنا نرى المكتمل ونسمع التعاليم من فمه.»

قالت المرأة: «نزلتما حقّاً في المكان الصحيح، أيها السمانيان من الغابة. اعلما أن المتعالي يقيم في بيتافانا في بستان أناثابنْديكا. تستطيعان، أيها الحاجّان، أن تمضيا الليل هناك، لأنّ المكان يسع لكلّ من يؤمّه، وأعدادهم لا تحصى، ليسمع التعاليم من فمه.»

Arab_Books

ففرح غوفيندا وصاح مبتهجاً: «هنيئاً لنا، بلغنا هدفنا وانتهت رحلتنا. لكنّ قولي لنا، يا أمّ الحجّاج، هل تعرفينه، البوذا، هل رأيته بأمّ عينك؟»

قالت المرأة: «مرات كثيرة رأيته، المتعالي، أياماً كثيرة رأيته يجول الأزقة، في صمت، بالرداء الأصفر، يمدّ صحفة الصدقات صامتاً، عند أبواب الديار، ويرحل حاملاً صحفته مليئة.»

منتشياً أصغى غوفيندا وأراد أن يسأل بعد ويسمع المزيد. لكنّ سدهارتا ذكّره بالمتابعة. فشكرا وتابعا السير، ولم يكن عليهما أن يسألا عن الطريق، لأنّ أنفاراً غير قليلة من الحجّاج والرهبان، التابعين لجماعة غوتاما، كانوا في طريقهم إلى بيتافانا. ولما بلغا المكان ليلاً، كانت هناك حركة مستمرّة بين من يصلون، ويصيحون، ويتحدّثون، ويطلبون مأوى، ويحصلون عليه. أما السمانيان، المعتادان على الحياة في الغابة، فلقيا في سرعة وصمت ملجأ ورقدا فيه حتى الفجر.

عند شروق الشمس رأيا بدهشة أي لمّة كبيرة من المؤمنين والعبّاد قد باتت هنا. على دروب البستان الرائعة كلّها، تجوّل رهبان في برود صفراء. تحت الأشجار جلسوا، هنا وهناك، مستغرقين في التأمّل أو في الحديث الروحاني، وبدت الجنائن الظليلة مثل المدينة التي تعج بأناس كالنحل. انطلق معظم الرهبان بصحفة الصدقات ليجمعوا في المدينة طعاماً لوجبة الغداء، وجبتهم الوحيدة. وكذلك اعتاد البوذا، المتنوّر، نفسه أن يقوم بجولة الاستجداء صباحاً.

رآه سدهارتا، وللحال عرفه، كما لو أنّ إلهاً قد دلّه عليه. رآه، رجلاً متواضعاً في برد أصفر، حاملاً صحفة الصدقات في يده، سائراً في هدوء.

Arab_Books

قال سدهارتا هامساً لغوفيندا: «انظر! هناك! ذاك هو البوذا.»

أمعن غوفيندا النظر في الراهب بالرداء الأصفر، والذي بدا كما لو كان كغيره من مئات الرهبان. وفي الحال عرفه غوفيندا أيضاً: هذا هو! فلحقا به وتأمّلاه.

سار البوذا في دربه متواضعاً ومستغرقاً في الأفكار. وجهه الهادئ لم يكن فرحاً ولا حزيناً، بل بدا وكأنّه يبتسم خافتاً نحو داخل الذات. بابتسامة خفيّة، تجوّل البوذا، هادئاً، ساكناً، شبيهاً، إلى حدّ ما، بطفل معافى، مرتدياً لباسه ومحركاً رجله وفق تعليمات دقيقة، مثل رهبانه جميعاً. لكنّ محيّاه، مشيته، طرفه الخاشع في سكون، يده المتدلية في سكون، بل كلّ إصبع في يده المتدلية في سكون، يقول السلام، يقول الكمال، لا يبحث، لا يحاكي، يتنفّس وديعاً في هدوء لا يذبل، في نور لا يخبو، في سلام لا يمسّ.

هكذا سار غوتاما صوب المدينة ليجمع الصدقات، والسمانيان لم يعرفاه إلاّ بفضل كمال سكينته، وسكون قوامه، الذي لم يظهر عليه أي أثر من بحث أو إرادة، من جهد أو محاكاة، الذي شفّ عنه نور وسلام وحسب.

«اليوم سنسمع التعاليم من فمه»، قال غوفيندا.

لم يرد سدهارتا. كان قليل الفضول لسماع التعاليم، وهو لا يؤمن بأنّها ستعلّمه الجديد، هو الذي تلقّى فحوى هذه التعاليم البوذية، مثلما تلقّاها غوفيندا، مراراً، وإن عبر تقارير وصلته منقولة عن لسانين أو ثلاثة. إلاّ أنّه أمعن النظر في هامة غوتاما، في كتفيه، في قدميه، في يده المتدليّة في سكون، فبدا له أنّ كلّ عقلة في كلّ إصبع من هذه اليد

Arab_Books

هي تعليم، تقول، تنفح، تفوح، تتوهّج حقيقة. هذا الرجل، هذا البوذا، هو حقيقة، حتى إيماءة آخر أصابعه. هذا الرجل، قديس. لم يسبق لسدهارتا أن أجلّ إنساناً مثل هذا الإجلال، لم يسبق له أن أحبّ إنساناً مثل هذا الحبّ.

تابع الاثنان البوذا حتى المدينة، وعادا صامتين، إذ عزما، ذلك النهار، على الامتناع عن الطعام. رأيا غوتاما يعود، رأياه يتناول وجبته في حلقة التلاميذ -ما تناوله من الطعام لم يكن ليشبع عصفوراً- ورأياه ينصرف إلى ظلال أشجار المانجو.

لكن، مساء، حين خفّت شدّة الحرّ ودبّ في المقام دبيب الحياة وتجمّع كلّ من فيه، سمعا البوذا يعلّم. سمعا صوته، وكان كاملاً أيضاً، كان كامل السكينة، مليئاً بالسلام. علّم غوتاما التعليم حول الآلام، حول أصل الألم، حول الدرب المفضي إلى إلغاء الألم. ساجياً وصافياً جرى حديثه الهادئ. آلام هي الحياة، طافح بالآلام العالم، لكن ثمّة سبيلاً إلى الخلاص من الآلام: من يسلك درب البوذا، يجد الخلاص.

بصوت وديع، حازم تكلّم المتعالي، علّم القضايا الأربع الرئيسية، علّم المهيع ذا الدروب الثمانية، بصبر نهَج نهْج التعليم المعهود، ذاكراً الأمثلة ومكرّراً إياها، باهراً وساجياً حلّق صوته فوق رؤوس المستمعين، مثل نور، مثل سماء مكلّلة بالنجوم.

عندما ختم البوذا حديثه، وهبط الليل، تقدّم بعض الحجّاج وطلبوا الانضمام إلى الجماعة، والتجؤوا إلى التعاليم. رحّب بهم غوتاما قائلاً: «أصغيتم إلى التعليم خير إصغاء، وبُشّر به خير تبشير. فاقتربوا وسيروا في قدسية، واضعين نهاية للآلام كلّها».

Arab_Books

وإذا بغوفيندا، الخجول، يتقدّم بدوره، يقول: «أنا أيضاً ألتجئ إلى المتعالي وإلى تعاليمه»، طالباً الانضمام إلى جماعة التلامذة، فقبل.

وبعد حين، وقد انصرف البوذا إلى استراحته الليلية، التفت غوفيندا إلى سدهارتا وقال بحميّة: «يا سدهارتا، ليس لي أن أعتب عليك. استمعنا معاً إلى المتعالي، أصغينا معاً إلى التعاليم. غوفيندا تلقّى التعاليم والتجأ إليها. أما أنت، أيها العزيز، أفلا تريد أن تسير أيضاً في درب الخلاص؟ لمَ التردّد، لم الانتظار؟»

استيقظ سدهارتا، كما لو أفاق من نوم، إذ بلغت كلمات غوفيندا مسمعه. أطال النظر إلى وجه غوفيندا، ثمّ قال خافتاً، بنبرة لا تهكّم فيها: «غوفيندا، يا صديقي، الآن خطوت الخطوة، الآن اخترت الطريق. دائماً، يا غوفيندا، كنتَ صديقي، دائماً تبعتني، سائراً خلفي بخطوة واحدة. أحياناً كثيرة فكّرت: ألن يخطو غوفيندا يوماً خطوة لوحده، من دوني، من تلقاء نفسه؟ وها أنت صرت رجلاً وتختار طريقك بنفسك. فلتنهج طريقك إلى منتهاها، أيها الصديق! فلتنل الخالص!»

أما غوفيندا الذي لم يفهم بعد تماماً، فكرّر سؤاله بنبرة نافدة الصبر: «أرجوك، تكلّم أيها العزيز! قل لي أن ما من احتمال آخر، إنك أنت أيضاً، يا صديقي اللبيب، ستلجأ إلى البوذا المتعالي!»

وضع سدهارتا يده على كتف غوفيندا: «ألم تنتبه إلى تبريكي لك، يا غوفيندا. أكرّره: لتسلك هذه الطريق إلى منتهاها! لتنل الخلاص!»

في هذه اللحظة أدرك غوفيندا أنّ صديقه قد هجره، فبدأ يبكي.

«سدهارتا!» صاح نائحاً.

كلّمه سدهارتا بمودّة ولطف: «لا تنس، غوفيندا، أنّك تنتمي الآن

Arab_Books

إلى سمانيي البوذا! تخلّيت عن الوطن والأهل، وعن الأصل والملك، تخلّيت عن إرادتك الخاصة، وعن الصداقة. هكذا تقول التعاليم، هكذا يقول المتعالي. هكذا تريد أنت بنفسك. غداً، يا غوفيندا، سأفارقك.»

وطال تجوال الصديقين في البستان، طال الرقود، والنوم يجفوهما. ومرّة تلو أخرى، ألحّ غوفيندا على صديقه بأن يقول له، لما لا يريد اللجوء إلى تعاليم غوتاما، وأي خطأ يرى في هذه التعاليم. لكنّ سدهارتا صدّه كلّ مرّة قائلا: «اطمئن، يا غوفيندا! جيدة جداً هي تعاليم المتعالي، فكيف لي أن أجد فيها خطأ؟»

عند أوّل الفجر، جال في البستان واحد من أخلاف البوذا، وهو من كبار رهبانه، ونادى كلّ المبتدئين الذين التجؤوا إلى التعاليم، ليخلع عليهم البرود الصفراء ويلقّنهم الدروس والواجبات الأولى لمرتبتهم. لحظتذاك غالب غوفيندا نفسه، وحضن، مرّة أخرى، صديق صباه، وانضمّ إلى موكب المهتدين الجدد.

أما سدهارتا فهام في الجنائن متفكّراً.

إذ ذاك التقى غوتاما، المتعالي، ولمّا حيّاه بخشوع وقابلته نظرة البوذا المليئة بالرفق والسكون، تشجّع الشابّ واستأذن المتعالي بأن يكلّمه. صامتاً أشار إليه المتعالي بالسماح.

قال سدهارتا: «أمس، أيها المتعالي، تسنّى لي أن أستمع إلى تعاليمك العجيبة. لقد أتيتُ من بعيد، في صحبة صديقي لأسمع التعاليم. والآن سيبقى صديقي عند أتباعك، التجأ إليك، أما أنا فسأعاود حجّي وتجوالي.»

«كما تشاء»، قال المتعالي بتهذيب.

Arab_Books

واستطرد سدهارتا: «مفرط في الجسارة كلامي؛ لكنّي لا أرغب في مغادرة المتعالي دون أن أبوح له بأفكاري صادقاً. فهل يتفضّل الجليل بالإصغاء إليّ لحظة بعد؟»

صامتاً أومأ البوذا بالسماح.

قال سدهارتا: «في تعاليمك أمر واحد، أيها الجليل، أثار جلّ إعجابي. كلّ شيء فيها واضح تماماً، مبرهن عليه؛ تُرينا العالم كسلسلة متكاملة، لا انقطاع فيها في أي مكان أو زمان، كسلسلة سرمدية مصاغة من أسباب ومسبّبات. لم يسبق لأحد أن رأى ذلك بوضوح مماثل، وإن عرض ذلك بدلائل لا تدحض كما فعلت؛ سينبض حقّاً قلب كلّ برهمي غبطة وهو يبصر العالم، من خلال تعاليمك، ليراه مترابطاً متكاملاً، بلا ثغرات، صافياً كالبلّور، غير خاضع للمصادفة، غير خاضع للآلهة. ولنهمل، ما إذا كان خيِّراً أم شريراً، ما إذا كانت الحياة فيه ألماً أم لذّة، وليس ذلك جوهرياً، على الأرجح -لكنّ وحدة العالم، وترابُط الأحداث كلّها، واندماج كلّ ما فيه من كبير وصغير، في السيل نفسه، في القانون نفسه، للسببية والصيرورة والفناء... كلّ ذلك يسطع بهيّاً في تعليمك السني، أيّها الكامل. لكنّ الحال هي أنّ هذه الوحدة وهذا الاتّساق المنطقي للأشياء كلّها، يُخترق مع ذلك، وبموجب تعليمك عينه، في محلّ ما؛ عبر ثغرة صغيرة يتدفّق إلى عالم الوحدة هذا شيء غريب، شيء جديد، شيء لم يكن من قبل ولا يمكن التدليل والبرهنة عليه: ألا وهو تعلَيمك حول تجاوز العالم، حول الخلاص. فالثغرة الصغيرة هذه، هذا الخرق الصغير، يعود يفضي إلى كسر قانون العالم، إلى نسخ القانون الواحد والسرمدي كلّه! أرجو أن تغفر لي إبدائي هذا الاعتراض.»

Arab_Books

ساكناً أصغى إليه غوتاما، وبلا تأثّر. بصوته الرحيم، بصوته المهذّب والصافي، تكلّم الآن الكامل: «إنك سمعتَ التعاليم، يابن البرهمي، وخير لك أنّك فكّرت فيها عميقاً. وجدت فيها ثغرة، خطأ. فلتثابر على التفكير فيها. لكن، حذار، أيّها المتعطّش إلى المعرفة، من آجام الأراء ومن المنازعة كرمى الألفاظ. لا أهمية للآراء، إن تكن جميلة أم قبيحة، ذكية أم بلهاء، يمكن لأيّ كان أن يتبنّاها أو أن ينبذها. أمّا التعليم الذي سمعته منّي، فهو ليس رأياً لي، وليس هدفه تفسير العالم للمتعطّشين إلى المعرفة. هدفه مغاير؛ هدفه الخلاص من الآلام. هذا ما يعلّم غوتاما، لا شيء سواه.»

قال الشاب: «لا تغضب منّي، أيّها المتعالي. لم أكلّمك على هذا النحو رغبة منّي في منازعتك وفي المبارزة الكلامية. إنّك على حق فعلاً، للآراء أهمية قليلة. لكن، دعني أقول هذا بعد: لم أشكّ فيك لحظة واحدة. لم أشكّ ولا لحظة في أنّك بوذا، في أنّك بلغت الهدف الأسمى الذي يسعى وراءه ألوف مؤلّفة من البراهمة وأبناء البراهمة. لقد وجدت الخلاص من الموت. نلت الخلاص بفضل بحثك الخاص، على دربك الخاص، بالأفكار، بالاستغراق، بالمعرفة، بالتنوّر. لم تنله بالتعاليم! وعلى ما أرى أيها المتعالي، لا يوجد من أحد نال الخلاص بالتعاليم! ما من أحد، أيّها الجليل، تستطيع أن تفضي إليه، بالكلام أو التعليم، ما حصل لك، ساعة تنوّرك! تتضمّن تعاليم البوذا المتنوّر أموراً كثيرة، وتُعلّم الكثيرين أن يعيشوا باستقامة ويتفادوا الشرّ. لكنّ أمراً واحداً غير متضمّن في هذه التعاليم الجليلة، الجلّية تمام الجلاء: أنّها لا تحوي سرّ ما اختبره المتعالي بنفسه، هو وحده بين مئات الآلاف. ذلك ما عرفته

Arab_Books

وفكّرت فيه، حين استمعت إلى التعاليم. لذلك سأواصل تجوالي -لا لأبحث عن تعليم آخر، أفضل، إذ أعرف أنْ لا وجود له، بل لأترك التعاليم والمعلّمين جميعاً، لأبلغ هدفي لوحدي أو أموت، لكنّي سأذكر هذا النهار أحياناً كثيرة، أيّها المتعالي، وهذه الساعة التي أبصرت فيها عيني قدّيساً».

أرسل البوذا بصره ساكناً إلى الأرض. ساكناً وفي راحة بال تامة أشرق وجهه الذي لا يُسبر.

قال الجليل متأنّياً: «لا كانت أفكارك مغالطات! فلتبلغ هدفك. لكن، قل لي: هل رأيت جموع أتباعي وإخواني الكثر، الذين التجؤوا إلى التعاليم؟ أتعتقد، أيّها السماني الغريب، أنّ من الأفضل لهؤلاء جميعاً أن يتركوا التعاليم ويرجعوا إلى حياة الدنيا والملذّات؟»

«تبعد عنّي فكرة من هذ القبيل -صاح سدهارتا- فليبقوا جميعاً على التعاليم، فليبلغوا جميعاً هدفهم! ليس لي أن أحكم على حياة الغير! من أجلي دون غيري، من أجلي وحدي، يجب علي أن أحكم وأختار وأرفض. ومرامنا، نحن السمانيين، الخلاص من الأنا، أيّها المتعالي. فما أخشاه، أيها الجليل، هو ألاّ يسكن الأنا وينال خلاصه إلاّ في الظاهر والوهم، وأنْ يظل حيّاً ينمو في الحقيقة، إن صرت واحداً من تلاميذك، لأنّي والحالة هذه سأحلّ التعليم، سأحلّ تبعيتي وحبّي لك وانتمائي إلى جماعة الرهبان، محلّ الأنا الذي لي!»

بنصف ابتسامة، بسناء ولطف لم يتزعزعا، نظر غوتاما إلى عين الغريب وودّعه بإيماءة لا تكاد ترى.

«ذكي أنت، أيها السماني -قال الجليل- تجيد الكلام بذكاء، يا عزيزي. حذار من الإفراط في الذكاء!»

Arab_Books

ورحل البوذا، إلاّ أن نظرته ونصف ابتسامته، ظلتا محفورتين في ذاكرة سدهارتا أبداً.

فكّر: لم يسبق لي أن رأيت إنساناً يضاهيه في النظر والابتسام، في الجلوس والمشية. كم أتمنّى أن أكون حقيقياً مثله في النظر والابتسام والجلوس والمشية، أن أكون مثله حراً وجليلاً، خفيّاً ومنشرحاً، طفولياً وملغزاً على السواء. فوحده من نفذ إلى مكنون ذاته يمكن له أن ينظر ويسير على مثل هذا النحو الحقيقي. فلأحاول إذن أن أنفذ أيضاً إلى مكنون ذاتي.

رأيت إنساناً -فكّر سدهارتا- إنساناً واحداً وجب عليّ أن أغضّ العينين في حضرته. ما من أحد غيره، سأغضّ أمامه العينين بعد اليوم، ما من أحد... وما من تعليم سيغريني بعد اليوم، إذ لم يغرني تعليم الإنسان هذا.

سلبني البوذا -فكّر سدهارتا- سلبني، وأكثر ممّا سلب، وهبني. سلبني صديقي، ذاك الذي آمن بي والذي يؤمن الآن به، الذي كان ظلّي، بات الآن ظلّ غواما. لكنّه وهبني سدهارتا، وهبني ذاتي.

Arab_Books

يقظة

حين غادر سدهارتا الجنائن التي بقي فيها البوذا، المكتمل، والتي بقي فيها غوفيندا، حينذاك أحسّ أنّ حياته السابقة بقيت أيضاً وراءه في تلك الجنائن، وفارقته. في هذا الإحساس، الذي ملأه تماماً، تفكّر وهو يسير في بطء. عميقاً تفكّر، غاص كمن يجتاز مياهاً عميقة، إلى قاع هذا الإحساس، إلى حيث ترقد الأسباب، لأنّ معرفة الأسباب -هكذا بدا له- هي التفكير بعينه، وبها وحدها تستحيل الإحساسات إلى معارف ولا تضيع، بل تصير شبه كائنات وتبدأ تشعّ ما تبطنه.

أثناء السير البطيء تفكّر سدهارتا. أدرك أنّه لم يعد شاباً، بل صار رجلاً. أدرك أنّ أمراً واحداً هجره، كما يهجر الحية جلدُها القديم، أنّ أمراً واحداً لم يعد موجوداً فيه، أمراً رافقه طوال شبابه ولازمه: الرغبة في اتباع المعلّمين وسماع تعاليمهم. لقد ترك المعلّم الأخير الذي ظهر له على دربه، تركه أيضاً، أعلى المعلّمين وأكثرهم حكمة، ترك الأقدس، البوذا، اضطرّ لأن يفارقه، ولم يستطع أن يعتنق تعاليمه.

أبطأ المتفكّر سيره وتساءل: «لكن، ما هو ذلك الشيء، الذي أردتَ تعلّمه من التعاليم والمعلّمين، والذي لم يتمكنّوا، هم الذين علّموك

Arab_Books

الكثير، من تعليمك إياه؟» فوجد: «إنه الأنا، الذي أردتُ أن أتعلّم معناه وجوهره، الأنا الذي أردت التخلّص منه وتجاوزه. لكنّي لم أستطع أن أتجاوزه، استطعت أن أخدعه، أن أهرب وأختبئ منه، لا غير. حقاً، ما من شيء في العالم شغل أفكاري بقدر ما شغلها هذا الأنا الذي لي، هذا اللغز، أن أحيا، أن أكون واحداً، منفصلاً ومنعزلاً عن الآخرين كلّهم، أن أكون سدهارتا! وما من شيء في العالم أعرف عنه أقلّ ممّا أعرف عن ذاتي، عن سدهارتا!»

توقّف المتفكّر أثناء السير البطيء، مأخوذاً بهذه الفكرة، وسرعان ما انبثقت عن هذه الفكرة، فكرة أخرى، جديدة، تفيد: «السبب الذي حال دون معرفتي شيئاً عن نفسي وأبقى سدهارتا غريباً عني ومجهولاً، هو سبب واحد وحيد: كنتُ خائفاً منّي، كنت هارباً منّي! عن أتمان بحثتُ، عن براهمان بحثتُ، مستعداً لأن أقطّع الأنا وأفتّته، كي أجد في مكنونه المجهول لباب القشور كلّها، الأتمان، الحياة، الإلهي، الأخير. أما الأنا نفسه فضاع منّي أثناء البحث.»

رفع سدهارتا عينيه والتفت حوله، ملأت ابتسامة وجهه، وتدفّق فيه، حتى أصابع القدمين، شعور عميق بالإفاقة من أحلام قد طالت. وسرعان ما عاود السير، عجّل في السير، مثل رجل يعلم ما العمل.

«آه -فكّر متنفّساً الصعداء بشهيق عميق- من الآن فصاعداً لن أدع سدهارتا يملص منّي! لن أعود أستهلّ تفكيري وحياتي بأتمان والام العالم. سأكفّ عن قتلي وتقطيعي، لأعثر تحت الأنقاض على السرّ. لا اليوغا فيدا سيعلمني بعد اليوم، ولا الأثارفا فيدا، ولا الزهّاد، ولا التعاليم أيّةً كانت. لدى ذاتي سأتعلّم، سأكون تلميذاً، سأتعرّفني السرّ سدهارتا.»

Arab_Books

تلفّت حوله، كما لو شاهد، لأوّل مرّة، العالم. جميل هو العالم، ملوّن العالم، غريب وملغز العالم! هنا الأزرق، هنا الأصفر، هنا الأخضر، السماء جارية والنهر، الغابة بارزة والجبال، كلّ شيء جميل، كلّ شيء ملغز وساحر، ووسط الأشياء كلّها هو، سدهارتا، المستيقظ، في الطريق إلى ذاته. كلّ هذا، كلّ هذا الأصفر والأزرق، النهر والغاب، ولج لأوّل مرّة عبر العين إلى سدهارتا، لم يعد سحراً لمارا، لم يعد ستراً للمايا، لم يعد تنوّعاً اعتباطياً بلا معنى لعالم الظاهرات، يزدري به البرهمي العميق التفكير الذي يرغب عن التنوّع، الذي ينشد الوحدة. الأزرق أزرق، النهر نهر، وحتى لو حيي الواحد والإلهي في الأزرق والنهر، داخل سدهارتا، حياةً خفيّة، شاء الإلهي، مع ذلك وعلى طريقته الخاصّة، أن يكون هنا أصفرَ، وهنا أزرقَ، وهناك سماءً، وهناك غابةً، وهنا سدهارتا. المعنى والجوهر لا يقعان في محلّ ماوراء الأشياء، بل هما فيها، في كلّ شيء.

«كم كنت أصم وخدراً! -فكّر المتجوّل العجول- حين يقرأ أحدهم كتابة، ساعياً إلى فهم معناها، لا يزدري الرموز والحروف ويسمّيها خداعاً، مصادفة وقشرة بلا قيمة، بل يقرأها، يدرسها ويحبّها حرفاً حرفاً. لكنّي أنا الذي أردتُ أن أقرأ كتاب العالم وكتاب ذاتي، ازدريت الرموز والحروف، كرمى معنى افترضته مسبقاً، وسمّيت عالم الظاهرات خداعاً، سمّيت عينيّ ولساني ظاهرات اعتباطية لا قيمة لها. لا، هذا انتهى، استيقظت، استيقظت الآن بالفعل، وها إني لم أولد إلاّ اليوم.»

حين فكّر سدهارتا هذه الفكرة، توقّف مرّة ثانية، فجأة، كما لو وجد حيّة أمامه على الطريق.

Arab_Books

إذ فجأة اتّضح له التالي أيضاً: سيكون عليه، هو الذي كالمستيقظ أو المولود الجديد، أن يبدأ حياته من جديد ومن أوّلها. حين غادر، هذا الصباح، البستان بيتافانا، بستان المتعالي، هو البادئ بالاستيقاظ وابتداء الطريق إلى ذاته، حينذاك كان مقصده، الذي بدا له طبيعياً وبديهياً، أن يعود بعد سنوات الزهد إلى موطنه وإلى دار أبيه. لكن الآن، وفي هذه اللحظة بالذات، التي توقّف فيها كمن يصادف حيّة على طريقه، استيقظ ليدرك هذا أيضاً: «... بل لم أعد من كنتُ عليه، لم أعد زاهداً، لم أعد كاهناً، لم أعد برهمياً. ماذا أفعل إذن في الدار، عند أبي؟ أدرس؟ أرفع القرابين؟ أزاول الاستغراق؟ ذلك كلّه انتهى، ذلك كلّه لم يعد يقع على طريقي.

تحجّر سدهارتا بلا حراك، وللحظة ونفَس ارتعد قلبه بدراً، أحسّ به يرتعد برداً في صدره مثل حيوان صغير، مثل أرنب أو عصفور، لما رأى مبلغ وحدته. لقد أمضى أعواماً طويلة بلا وطن من دون أن يشعر بذلك. والآن يشعر. فيما مضى كان، حتى في أبعد استغراق، ابن أبيه، كان برهمياً، روحانياً، عالي المرتبة. والآن لم يعد سوى سدهارتا المستيقظ، لا غير. عميقاً استنشق النفس، وللحظة ارتعد برداً وارتعش. لا أحد وحيد مثله. ما من نبيل لا ينتمي إلى النبلاء، ما من حرفي لا ينتمي إلى الحرفيين ويجد ملجأ عندهم، يشاطرهم حياتهم ويتكلّم لغتهم. ما من برهمي، لا يُعدّ من البراهمة ويعيش معهم، ما من زاهد لا يجد ملجأ له في فئة السمانيين، وحتى أكثر النسّاك ضياعاً في الغابة ليس واحداً ووحيداً، بل هو أيضاً محصّناً بالانتماء، ينتمي أيضاً إلى فئة هي وطن له. غوفيندا صار راهباً، وآلاف الرهبان إخوانه، يلبسون لبسه، يؤمنون

Arab_Books

إيمانه، يتكلّمون لغته. لكنّه، هو سدهارتا، أين ينتمي؟ حياة من سيشاطر؟ لغة من سيتكلّم؟

من هذه اللحظة، التي ذاب فيها العالم من حوله وتوارى، التي وقف فيها وحيداً مثل نجمة في السماء، من لحظة البرد واليأس هذه، طلع سدهارتا أكثر امتلاء بالأنا من ذي قبل، وأصلب تكتّلاً. أحسّ: هذه هي رجفة الاستيقاظ الأخيرة، مخاض الولادة الأخير. وسرعان ما عاود السير، بدأ يسير عاجلاً ونافد الصبر، لا يعود إلى الدار، ولا إلى الوالد، ولا إلى الوراء.

Arab_Books

Arab_Books

الجزء الثاني

Arab_Books

Arab_Books

كمالا

تعلّم سدهارتا الجديد مع كلّ خطوة على دربه، لأنّ العالم تحوّل وقلبه مسحور. رأى الشمس تشرق فوق الجبال الشجراء، وتغرب فوق شواطئ النخيل البعيدة. رأى في السماء ليلاً، النجوم منضّدة ومنجل القمر كمركب سابح في الزرقة. رأى أشجاراً ونجوماً وبهائم، غيوماً وأقواس قزح وصخوراً، أعشاباً وأزهاراً، ينبوعاً ونهراً، برْق الندى على أغصان صباحية رأى، شوامخ الجبال النائية، زرقاءَ وشاحبةً، وعصافير تغرّد ونحلاً يطنّ، وريحاً تهفّ فضّية في حقول الأرز. وهذا كلّه قائم أبداً، بألوانه وهيئاته المتعدّدة، وأبداً يسطع القمر والشمس، وأبداً يهدر النهر والنحل، إلاّ أنّ هذا كلّه لم يكن عند سدهارتا قط، سوى حجاب خادع وعابر أما عينه، موضع ارتياب، مقدّر عليه أن تخرقه الأفكار وتمزّقه، لأنّه ليس ماهية، ولأنّ الماهية تقع في ماوراء المرئي. والآن، تمكث في الدنيوي عينُه المتحرّرة، ترى وتدرك المرئي، تبحث عن وطن في هذا العالم، لا تبحث عن الماهية، لا تهدف إلى الماوراء. جميل هو العالم للناظر إليه على هذا النحو، دونما بحث، على هذا النحو الطفولي البسيط. جميلان هما القمر والنجم، الجدول والشاطئ، الغاب والصخر،

Arab_Books

جميلتان العنزة والحشرة الذهبية، الزهرة والفراشة. جميل وعذب هو الهيام في العالم على هذا النحو، مثل طفل، مثل من يستيقظ، مرحّباً بكلّ قريب منشرح الصدر، هكذا، دونما ارتياب. على نحو مغاير تلفح الشمس الهامة، على نحو مغاير تنعش الظلال في الغابة، تغيّر مذاق النبع والبئر، مذاق البقطين والموز. قصيرة هي الأيام، وقصيرة هي الليالي، كلّ ساعة تهفّ عاجلة، مثل شراع فوق البحر، وتحت الشراع مركب مليء بالكنوز، مليء بالمسرّات. لمح سدهارتا سربا من القردة، يتنقّل في قبة الغابة العالية، عالياً بين الأغصان، وسمع غناءً صاخباً شهوانياً. رأى سدهارتا كبشاً يلاحق شاة ويطؤها. رأى، في بحيرة محاطة بالقصب، سمك الكركي يصيد في جوع مساني، وأمامه تتطاير الأسماك الصغيرة أفواجاً فوق الماء، ترفّ وتتلألأ راجفة، ورائحة البطش والشغف تفوح قوية من دوارات الماء السريعة التي يرسمها الصياد الجامح.

وكلّ هذا قائم أبداً، وهو لم يره قط، ولم يكن حاضراً فيه. الآن يحضر وينتمي إليه. في عينه يمرّ الضوء والظلّ، وفي قلبه يمرّ النجم والقمر.

تذكّر سدهارتا في دربه أيضاً كلّ ما عاشه في بستان بيتافانا، تذكّر التعليم الذي سمعه هناك، والبوذا الإلهي، وفراق غوفيندا، وحواره مع المتعالي، تذكّر كلّ ما قاله للمتعالي كلمة كلمة، فأدرك بدهشة أنه قال حينذاك أشياء لم يكن يعرفها بعد. قال لغوتاما: إنّ كنزه، كنز البوذا وسرّه، ليس التعليم، بل هو ما يُتلفّظ به ولا يُعلّم، ما اختبره ذات يوم، في ساعة تنوّره -وهو بعينه ما انطلق يعيشه الآن، وما بدأ يعيشه

Arab_Books

فعلاً. فالآن، عليه أن يخبر ذاته، صحيح، أنّه يعرف منذ زمن طويل أنّ ذاته هي أتمان، وأنّها من الماهية السرمدية نفسها التي لبراهمان. إلاّ أنّه لم يعثر على هذه الذات يوماً، إذ كان يروم صيدها بشباك الفكر. وإن لم يكن الجسد هو الذات، ولا ما تتلهّى به الحواسّ، فإنّ الفكر، هو الآخر، ليس الذات، ولا الفاهمة ولا الحكمة المكتسبة، ولا فنّ الاستدلال المكتسب، الذي يغزل، من المفكَّر فيه سابقاً أفكاراً جديدة. لا، هذا العالم الفكري هو بدوره في الماوراء، ولا يبلغ المرء أي غاية إذا ما قتل أنا الحواسّ العرضي وسمّن، بالمقابل، أنا الأفكار والتعاليم العرضي أيضاً. الاثنان، الأفكار والحواسّ، من لطائف الأشياء، وراء الاثنين يكمن المعنى الأخير، إلى الاثنين يجب الإصغاء، بالاثنين يجب اللعب، الاثنان لا ينبغي الازدراء بهما ولا الإفراط في تقديرهما، في الاثنين يجب الإنصات إلى أصوات المكنون الخفيّة. فقرّر سدهارتا ألاّ يطمع في شيء إلاّ في ما يأمره به الصوت الداخلي، وألاّ يمكث بشيء إلاّ بما ينصح به الصوت. لماذا، يا ترى، جلس غوتاما ذات يوم، في ساعة الساعات، تحت شجرة البو حيث لقيه التنوّر؟ لقد سمع صوتاً، صوتاً في قلبه، آمره بطلب الراحة تحت هذه الشجرة، وهو لم يفضّل إماتة الجسد أو رفع القرابين، ولا الاستحمام أو الصلاة، ولا الطعام أو الشراب، ولا النوم أو الحلم، بل انصاع للصوت. هذا الانصياع، لا لأمر خارجي، بل للصوت فحسب، هذا التأهّب، رائع وضروري، وما من شيء ضروري سواه.

في الليل، حين نام سدهارتا في كوخ خيزراني لمراكبي قرب النهر، حلم حلماً: يقف غوفيندا أمامه، لابساً برد الزاهد الأصفر، حزيناً يبدو غوفيندا، وحزيناً يسأل: لماذا هجرتني؟ فيعانقه سدهارتا ويطوّقه

Arab_Books

بذراعيه، ويضمّه إلى صدره يقبّله... فإذا بغوفيندا يتحوّل إلى امرأة، ومن ثوب المرأة يطفح صدر نافر، يرقد سدهارتا لصقه ويرضع منه. حلو وقوي مذاق الحليب من هذا الصدر. فيه من المرأة والرجل، من الشمس والغابة، من الحيوان والزهرة، بل من كلّ ثمرة وكلّ لذّة. يسكر هذا الحليب ويغيّب الوعي.

عندما استيقظ سدهارتا، تلألأ النهر الشاحب خلال باب الكوخ، ومن الغابة تردّدت صيحة بومة عميقة، خفيضة ورخيمة.

وحين طلع النهار، طلب سدهارتا إلى مضيفه، المراكبي، أن يعبر به النهر. فعدّاه المراكبي النهر على رمثه الخيزراني، والنهر العريض يتلألأ أحمر في وهج الصباح.

«هذا نهر جميل»، قال لمرافقه.

«نعم -قال المراكبي- نهر جميل جداً. أحبّه الحبّ كلّه. مرّات كثيرة أصغي إليه، أو أنظر إلى عينيه، وكلّ مرّة أتعلّم منه يمكن للمرء أن يتعلّم الكثير من نهر.»

«أشكرك، يا محسني -قال سدهارتا وهو ينزل إلى الضفّة الأخرى- ليس لدي هدية أعطيك إياها، أيها العزيز، ولا أجر. فإني إنسان بلا وطن، ابن برهمي وسماني أنا.»

«لقد رأيت ذلك -قال المراكبي- ولم أتوقع منك أجراً ولا هدية. ستعطيني الهدية مرّة أخرى.»

«أتعتقد ذلك؟»، قال سدهارتا مرحاً.

«بالتأكيد. تعلّمت هذا من النهر أيضاً: كلّ شيء يعود! وأنت أيضاً، يا سمانيا، ستعود. والآن، وداعاً! لتكن صداقتك أجراً لي. فلتذكرني، حين ترفع القرابين إلى الآلهة.»

Arab_Books

مبتسمين افترقا. ومبتسماً فرح سدهارتا بصداقة المراكبي ولطفه. «إنه مثل غوفيندا -فكّر مبتسماً- كلّ من أصادفهم في دربي هم مثل غوفيندا. كلّهم ممتنون، رغم أنّهم من يستحق الشكر. كلّهم مطيعون، يؤثرون الصداقة والانقياد وقلّة التفكير. أطفال هم الأنام.»

عند الظهيرة مرّ بقرية. أمام الأكواخ الطينية تمرّغ الأطفال في الأزقّة، يلعبون بالأصداف وبذور اليقطين، يصيحون ويتعاركون، إلاّ أنّهم خفروا جميعاً عند دنو السماني الغريب. في آخر القرية، اجتاز الطريق جدولاً، وعلى ضفّة الجدول ركعت امرأة شابّة تغسل الثياب. حين حيّاها سدهارتا، رفعت رأسها ونظرت إليه مبتسمة، فلمح البياض في عينيها يتوهّج. قال لها تبريكات مثلما يفعل المسافرون، وسألها عن طول الطريق إلى المدينة الكبيرة. فنهضت واقتربت منه، وفمها يتلألأ جميلاً في الوجه الفتي. بادرته ممازحة تسأله عمّا إذا كان قد أكل شيئاً... وهل صدقاً ينام السمانيون ليلاً وحدهم في الغابة ولا يُسمح لهم بمعاشرة النساء؟ وأثناء هذه الممازحة وضعت قدمها اليسرى على قدمه اليمنى وأدّت حركة تقوم بها المرأة حين تدعو الرجل إلى ذلك النوع من متعة الحبّ الذي تسمّيه كتب التعليم «تسلّق الأشجار». أحسّ سدهارتا بدمه يغلي، وإذ تذكّر في اللحظة نفسها ما رآه في حلمه، انحنى قليلاً على المرأة وقبّل قمّة صدرها السمراء. ورافعاً رأسه، رأى وجهها يبتسم لهفة وعينيها المصغّرتين تتضرّعان شوقاً.

أحسّ سدهارتا أيضاً بالشوق وبالشهوة تتدفّق فيه كالغدير؛ لكنّه، هو الذي لم يلمس امرأة من قبل، تمهّل لحظة، بينما كانت يداه تتأهّبان للإمساك بها. وفي اللحظة هذه سمع، وهو يرتعش، الصوت في أعماقه.

Arab_Books

وقال الصوت: لا، عند ذاك تلاشى كلّ ما في وجه المرأة الشابّة المبتسم من سحر، وهو لم يعد يرى فيه سوى ما لأنثى تطلب المجامعة من نظرة رقراقة. بلطف داعب خدّها وانصرف عنها. وتوارى عن أنظار الخائبة الأمل، متغلغلاً خفيف القدمين في دغل الخيزران.

في اليوم نفسه، وصل قبل المساء إلى مدينة كبيرة. ففرح، لأنّه تائق إلى البشر. لقد عاش طويلاً في الغابات، وكوخ المراكبي القشّي الذي قضى فيه هذه الليلة، كان منذ زمن طويل أوّل سقف يؤويه.

عند طرف المدينة، أمام حديقة مسيّجة جميلة، التقى الرحّال بموكب صغير من الخدم والخادمات المحمّلين بالسلال. وفي وسطهم، داخل هودج مزيّن، يحمله أربعة، جلست، على وسائد حمراء، تحت مظلّة ملوّنة، امرأة: السيدة. توقّف سدهارتا عن سيره عند مدخل الحديقة مراقباً الموكب، رأى الخدم والخادمات والسلال، رأى الهودج، ورأى، داخل الهودج، السيّدة. تحت شعر أسود مرفوع كالبرج، لمح وجهاً بهيّاً جداً، رقيقاً وذكياً، الفم الناعم الحمرة مشقوق مثل حبّة تين طازجة، الحاجب قوس عال مرسوم بعناية، العين الداكنة، ذكية ومتوقّدة، العنق العاري الطويل طالع عن ثوب أخضر مذهّب، اليد الناصعة الساكنة، هفهافة ورشيقة، مطوّقة بأساور ذهبية عريضة عند المعصم.

رأى سدهارتا كم هي جميلة وقلبه مبتهج. انحنى كثيراً، حين اقترب منه الهودج، وإذ عاد رفع رأسه نظر إلى الوجه السني العذب، قرأ لحظة في العين الذكية المتوّجة بقوسها العالي، واستنشق نسمة من رائحة لا يعرفها. مبتسمة أحنت المرأة الجميلة رأسها، لحظةً، وتوارت في الحديقة، يتبعها الخدم.

Arab_Books

أدخُل هذه المدينة إذن تحت نجمة سعيدة -فكّر سدهارتا. وراودته فكرة دخول الحديقة من دون تلكّؤ. لكنّه تفكّر في الأمر، فاستحضر فجأة نظرات الخدم والخادمات عند المدخل، نظرات الازدراء والارتياب والنفور التي رموه بها.

فكّر: مازلت سمانياً، مازلت زاهداً وشحاذاً. ليس لي أن أبقى هكذا، أن أدخل الحديقة هكذا، فضحك.

في الطريق سأل أوّل إنسان صادفه، عن الحديقة وعن اسم تلك المرأة، فعرف أنّها حديقة الكمالا، السريّة الشهيرة، وأنّ لها إلى جانب الحديقة داراً في المدينة.

فدخل المدينة، وله هدف.

ساعياً وراء هدفه، ترك المدينة تمتصّه، انساق لجريان الأزقّة، وقف ساكناً في الساحات، استراح على أدراج حجرية قرب النهر. عند حلول المساء، صادق مساعد حلاّق، قد رآه يزاول عمله في ظلّ أحد الأقبية، وعاد ولقيه مصلّياً في معبد من معابد فيشنو، فحكى له قصص فيشنو ولاكشمي. وعند المراكب على ضفّة النهر نام ليلاً، وفي الصباح الباكر، قبل وصول أوّل الزبائن إلى المحلّ، طلب إلى مساعد الحلاّق أن يحلق ذقنه ويقصّ شعره، أن يمشّطه ويدهنه بزيت زكي. ثم راح يستحمّ في النهر.

أصيلاً، حين اقتربت كمالا الجميلة في الهودج من حديقتها، وقف عند المدخل سدهارتا، ينحني ويتلقّى تحية السريّة. أمّا الخادم الذي سار في عقب الموكب، فلوّح له وطلب إليه إبلاغ السيدة أنّ برهمياً شاباً يود التحدّث إليها. بعد برهة عاد الخادم ودعا المنتظر لأن يتبعه، فقاد تابعه

Arab_Books

صامتاً إلى سُرادِق، كانت كمالا فيه مضطجعة على فراش، فتركه بين يديها وحيداً.

بادرته كمالا: «ألم تكن بالأمس عند المدخل تسلّم عليّ؟»

«صحيح، قد رأيتك أمس وسلّمت عليك.»

«لكن، ألم تكن بالأمس ذا لحية وشعر طويل يكسوه الغبار!»

«لقد أحسنت المراقبة ورأيت كلّ شيء. رأيت سدهارتا، ابن البرهمي، الذي غادر مسقط رأسه ليصير سمانيا. وكان سمانيا ثلاثة أعوام. لكنّي تركت ذلك الدرب الآن وجئت إلى هذه المدينة، والمرأة الأولى التي لقيتها، وقبل دخولي المدينة، هي أنت. فأتيت إليك لأقول لك هذا، أيّتها الكمالا. أنت أوّل امرأة يكلّمها سدهارتا دون أن يغضّ العينين. من الآن فصاعداً لن أغضّ العينين، إن التقيت امرأة جميلة.»

ابتسمت كمالا ملوّحة بمهفّتها التي من ريش الطاووس. سألت: «وهل جاء سدهارتا إليّ ليقول لي هذا وحسب؟»

«لأقول لك هذا ولأشكرك على كونك بهذا الجمال. وإن لم تمانعي، يا كمالا، أرغب في أن أطلب منك أن تكوني صديقتي ومعلّمتي، لأنّي مازلت أجهل الفن الذي تتقنينه.»

عند ذاك، ضحكت كمالا ضحكة عالية.

«لم يحدث لي يوماً، يا صديقاً، أن جاء إليّ سماني من الغابة وأراد أن يتعلّم منّي! لم يحدث لي يوماً، إن جاء إليّ سماني بشعر طويل ووزرة قديمة ممزّقة! شبان كثيرون يأتون إليّ، وبينهم أبناء براهمة أيضاً، لكنّهم يأتون بأجمل الثياب والأحذية، وفي شعرهم رائحة زكية وفي جيوبهم دراهم. هكذا، يا سمانيا، هيئة الشبان الذين يأتون إليّ.»

Arab_Books

قال سدهارتا: «ها إنّي بدأت أتعلّم منك. وقد تعلّمت بالأمس أيضاً. ها إني نزعت لحيتي ومشطت شعري ودهنته بالزيت، وما ينقصني قليل، أيّتها الرائعة: أجمل الثياب والأحذية، ونقود في الجيب. اعلمي أنّ سدهارتا عزم على أصعب من مثل هذه الصغائر وحقّقه. فكيف لي ألاّ أحقّق ما عزمت عليه أمس: أن أكون صديقك وأتعلّم منك متع الحبّ! ستجدينني لبيباً، يا كمالا، وقد تعلّمت أموراً أصعب من تلك التي أريد تعلّمها منك. والآن: ألا يكفيك سدهارتا كما هو، بزيت في الشعر، لكن من دون ثياب ولا حذاء ولا نقود؟»

ضاحكة صاحت كمالا: «لا، أيّها العزيز، لا يكفي بعد، يجب أن تكون لديه ثياب، ثياب جميلة، وأحذية، أحذية جميلة، ونقود كثيرة في جيبه، وهدايا لكمالا. هل عرفت الآن ما أعني، يا سمانيا من الغابة؟ هل حفظته؟»

«بالتأكيد حفظته -صاح سدهارتا- وكيف لي ألاّ أحفظ ما يأتي به فم كهذا! فمك مثل حبة تين نضرة مشقوقة للتو، يا كمالا. وفمي أيضاً أحمر ونضر، سيليق بفمك، سترين. -لكن، قولي، يا كمالا الجميلة، ألا تخافين سمانيا من الغابة، جاء ليتعلّم الحبّ؟»

«ولِمَ أخاف سمانيا، سمانيا مغفّلاً من الغابة، يأتي من حيث بنات آوى، ولا يعرف بعد البتّة، ما النساء؟»

«آه، قوي هو السماني، ولا يخاف شيئاً. قد يحلو له أن يغصبك، يا صبية جميلة، في وسعه أن يسلبك، وأن يؤذيك.»

«لا يا سمانيا، لا أخاف هذا. وهل من سماني أو برهمي يخاف أن يأتي أحدهم فيقبض عليه ويسلبه تعليمه أو تقواه أو بصيرته؟ لا، لأنّ

Arab_Books

هذه الأشياء تخصّه، وهو لا يجزل منها إلاّ بما يريد ولمن يريد. وهكذا هو الحال، هكذا تماماً، مع كمالا ومتع الحبّ. جميل وأحمر فم كمالا، لكن حاولْ تقبيله دون إرادة كمالا، لا تنل منه، هو الذي يجيد الجزل بالعذب واللذيذ، ولا قطرة واحدة من العذوبة! أنت لبيب سدهارتا، فتعلّم هذا أيضاً: يمكن للمرء أن يستجدي الحبّ أو يشتريه، أن يناله هبة، أو يعثر عليه في الزقاق، لكنّ سلب الحبّ غير ممكن. وأنت مخطئ، إن فكّرت بذلك الطريق، وياللخسارة، حين يكون شاب وسيم مثلك يحاول تدبير الأمر على هذا المنوال الخاطئ!»

انحنى سدهارتا مبتسماً: «خسارة فعلاً، يا كمالا، كم أنت محقّة! خسارة فادحة! لكن، لا، لن أخسر من فمك قطرة عذوبة واحدة، ولا أنت من فمي! الأمر محسوم إذن: سدهارتا سيعود حين يكون لديه ما ينقصه بعد: ثياب، أحذية، نقود. لكن، قولي لي، أيّتها الكمالا العذبة، ألا تستطيعين أن تسدي لي نصيحة صغيرة؟»

«نصيحة؟ ولم لا؟ فمن لا يفرح بإسداء نصيحة إلى سماني جاهل مسكين، يأتي من بنات آوى في الغابة؟»

«أيّتها الكمالا العزيزة، انصحيني إذن: إلى أين أتّجه، لأجد الأشياء الثلاثة بأسرع ما يمكن؟»

«يا صديقي، كثيرون يريدون معرفة ذلك. عليك أن تعمل ما تعلّمته وتطلب مقابل العمل النقود والثياب والأحذية. لا يمكن لفقير أن يغتني بغير طريقة. فماذا تتقن؟»

«أستطيع أن أفكّر. أستطيع أن أنتظر. أستطع أن أصوم.»

«لا تتقن شيئاً آخر؟»

Arab_Books

«لا، لاشيء. بلى، أستطيع أن أنظم الشعر. هل تعطيني، مقابل قصيدة، قبلة؟»

«سأفعل، إن أعجبتني القصيدة. فما اسمها؟»

أنشد سدهارتا بعد لحظة من التفكير هذه الأبيات:

«إلى بستانها الظليل دلفت كمالا الجميلة،
على مدخل البستان وقف السماني الأسمر،
انحنى، إذ لمح زهرة اللوتس،
انحناءة عميقة، وشكرت كمالا مبتسمة.
أعذب من رفع القرابين إلى الآلهة -قال الشاب
رفع القرابين إلى كمالا الفاتنة.»

بشدّة صفّقت كمالا بيديها، حتى طنّت الأساور الذهبية مصلصلة.

«أبياتك جميلة، أيّها السماني الأسمر، ولا أخسر شيئاً، إن منحتك قبلة جزاء لها.»

جذبته بعينيها، أحنى وجهه على وجهها ووضع فمه على الفم الذي يبدو كحبّة تين ناضجة، مشقوقة للتو. طويلاً قبّلته كمالا، وبدهشة عميقة أحسّ سدهارتا كيف تعلّمه وكم هي حكيمة، كيف تتمكّن منه، تبعده وتغريه. واستشفّ من هذه القبلة الأولى أن سلسلة طويلة، منتظمة ومجرّبة، من قبلات لا تشبه إحداها الأخرى، في انتظاره. تسمّر متنفّساً بعمق، وهو في هذه اللحظة مثل طفل مذهول لغمرة المعارف الجديرة بالتعلّم التي بدأت تنكشف أمام عينيه.

«أبياتك جميلة جداً -صاحت كمالا- ولو كنتُ غنية، لأعطيتك لقاءها دنانير ذهب. لكنّه سيصعب عليك أن تكسب بالشعر ما يلزمك

Arab_Books

من مال، وبك حاجة إلى مال وفير، إن أردت أن تكون صديق كمالا.»

«كم تجيدين التقبيل، يا كمالا!»، قال سدهارتا متعلثماً.

«صحيح، أجيده ولذلك لا ينقصني شيء من الثياب والأحذية والأساور والأشياء الجميلة كلّها. لكن، ماذا سيحلّ بك؟ ألا تعرف شيئاً غير التفكير والصوم ونظم الشعر؟»

«أعرف أناشيد التضحية -قال سدهارتا- لكنّي لا أريد أن أنشدها بعد اليوم. وأعرف أيضاً تعاويذ السحر، لكني لا أريد أن ألفظها بعد اليوم. قرأت الكتابات...»

«على مهلك -قاطعته كمالا- أتعرف القراءة؟ والكتابة؟»

«نعم، أعرف. ولست الوحيد...»

«لكنّ السواد الأعظم يجهل هذا الفن، وأنا أيضاً... أمّا أنت، فتجيد القراءة والكتابة، وهذا رائع، رائع جداً!... والتعاويذ قد تنفع أيضاً.»

في هذه اللحظة دخلتْ، مهرولةً، الخادمة وهمست في أذن السيدة خبراً.

«أنتظر زائراً -صاحت كمالا- عجّل وانصرف، سدهارتا، يجب ألاّ يراك أحد هنا، لا تنس هذا! سأقابلك غداً.»

أما الخادمة، فأمرتها السيّدة بأن تزوّد البرهمي التقي برداء أبيض. فرأى سدهارتا نفسه منقاداً على يد الخادمة، من دون أن يعرف ما يحدث له، وهي تسوقه، عبر طريق ملتوية، إلى تعريشة في البستان، تزوّده برداء فتقوده إلى بقعة مدغلة، منذرة إياه أن ينصرف من الحديقة عاجلاً ومن دون أن يلمحه أحد.

Arab_Books

راضياً نفّذ ما أمر به. معتاداً على حياة الغابة، حمل نفسه، من دون جلبة، فوق الشجيرات المحيطة بالحديقة، وإلى الخارج. راضياً رجع إلى المدينة، حاملاً الرداء الملفوف تحت إبطه. وعند خان، يستريح فيه المسافرون، توقّف قرب الباب، استجدى صامتاً الطعام، وقبل صامتاً قطعة من كعك الأرزّ. فكّر: علّني أكفّ، منذ الغد، عن طلب الطعام من أحد.

تأجّج فجأة كبرياء. لم يعد سمانيا، لم يعد يليق به الشحاذة. فألقى كعك الأرزّ لكلب وظلّ بلا طعام.

«بسيطة هي الحياة التي يعيشونها هنا، في العالم -فكّر سدهارتا- بلا صعوبات هي. كان كلّ شيء صعباً وشاقاً ويائساً في النهاية، حين كنتُ سمانيا. والآن كلّ شيء سهل، سهل مثل دروس التقبيل التي تلقّنيها كمالا. أحتاج إلى ثياب ونقود، لا غير، وهذه أهداف صغيرة قريبة، لا تقضّ مضجع المرء.»

منذ ردح قد استدلّ إلى دار كمالا في المدينة، وإلى هناك اتّجه في اليوم التالي.

«الأمور على ما يرام -صاحت مستقبلة إياه- كمسْوامي في انتظارك... أغنى تاجر في هذه المدينة. إن أعجبتَه، استخدمك. كن ذكياً، أيّها السماني الأسمر. لقد حثثت بعضهم على ذكر اسمك وأخبارك أمامه. كن لطيفاً معه، فهو طويل الباع. لكن، لا تفرط في التواضع! لا أريدك أن تصير خادماً له، أريدك أن تكون له نداً، وإلاّ خيّبتني. كمسوامي بدأ يشيخ ويميل إلى الراحة. إن أُعجب بك، أوكل إليك أموراً كثيرة.»

Arab_Books

شكر لها سدهارتا وضحك، وإذ علمت أنّه لم يأكل، لا بالأمس ولا اليوم، طلبت إحضار الخبز والفواكه وضيّفته.

«أنت محظوظ -قالت عند الوداع- ينفتح لك باب إثر باب. كيف هذا، يا ترى؟ هل عندك سحر؟»

قال سدهارتا: «أخبرتك أمس، أني أجيد التفكير والانتظار والصوم، وأنت رأيت أن ذلك غير مجد. لكنّ هذه الأمور كثيرة الفوائد، يا كمالا، سترين. سترين أن السمانيين المغفّلين في الغابة يتعلّمون مناقب لطيفة تجهلونها أنتم. قبل أمس كنت شحاذاً شعثاً، بالأمس قبّلت كمالا، وقريباً سأكون تاجراً له مال وكلّ تلك الأشياء التي تنسبين إليها قيمة.»

«صحيح -اعترفْت- لكن، ماذا كان سيحلّ بك من دوني؟ ماذا كنت ستصير، لو لم تساعدك كمالا؟»

«يا كمالا العزيزة -قال سدهارتا ونصّب قامته عالياً- حين جئت إليك في الحديقة، خطوت الخطوة الأولى. كنت عازماً على أن أتعلّم الحبّ لدى أجمل النساء. ومنذ اللحظة، التي عزمت فيها على ذلك، عرفت أيضاً أنّني سأحقّق مرادي. عرفت أنّك ستساعدينني؛ منذ نظرتك الأولى عند مدخل الحديقة عرفت ذلك.»

«ولم لم أرغب في ذلك؟»

«كنت راغبة. انظري يا كمالا: حين تلقين حجراً في الماء، يهبط الحجر بأسرع طريق إلى القاع. وهكذا هي الحال، لما يكون لسدهارتا هدف يعزم على بلوغه. لا يفعل سدهارتا شيئاً، هو ينتظر، ويفكّر، ويصوم، لكنّه يعبر أشياء العالم، كما يعبر الحجر المياه؛ من دون فعل

Arab_Books

شيء، من دون حركة؛ فهو مجذوب، ويدع نفسه ينساق. يجذبه هدفه، لأنّه لا يسمح لأي أمر، يعارض الهدف، بولوج نفسه. هذا ما تعلّمه سدهارتا عند السمانيين. إنّه ما يسمّيه الحمقى سحراً، وما ينسبون أثره إلى فعل الجن. ما من جنّ. بوسع كلّ واحد أن يسحر، وأن يبلغ أهدافه، إن كان قادراً على التفكير، وعلى الانتظار، وعلى الصوم. »

كانت كمالا مصغية إليه. أحبّت صوته، وأحبّت نظرة عينيه.

قالت هامسة: «لعلّ الأمر كما تقول، يا صديقا. وعلّ الأمر على غير ذلك، أعني أنّ سدهارتا رجل وسيم وأنّ نظرته تثير إعجاب النساء، ولهذا السبب يقبل عليه الحظ. »

ودّعها سدهارتا بقبلة: «ليكن الأمر هكذا، يا معلّمتي. فلتنل نظرتي إعجابك أبداً، وليأتني منك الحظّ على الدوام! »

Arab_Books

Arab_Books

عند الأنام الأطفال

قصد سدهارتا التاجر كمسْوامي، فدلّوه إلى بيت فاخر. قاده الخدم بين سجاجيد ثمينة إلى حجرة انتظر فيها صاحب البيت.

دخل كمسْوامي، رجل عجول رشيق، بشعر شديد الشيبة، وعينين متحفّظتين، ذكيّتين جداً، وفم شهواني. بلطف تبادلا التحية: السيّد والضيف.

«قيل لي -بادره التاجر- إنّك برهمي وعالم، غير أنّك تبحث عن عمل في التجارة. فهل وقعت في ضيق، يا برهميا، حتى تبحث عن العمل؟»

«لا -قال سدهارتا- لم أقع في ضيق ولم تضق بي السبل يوماً. اعلمْ أنّي أتيت من السمانيين الذين عشت عندهم أمداً طويلاً.»

«وكيف لا تكون في ضيق وأنت من السمانيين؟ أليس السمانيون بلا أي أملاك؟»

«لا أملاك لي -قال سدهارتا- إن كان هذا ما تقصد. لا أملك شيئاً، بلا شكّ. لكنّي على هذه الحال باختياري، أي أنّي لستُ في ضيق.»

Arab_Books

«لكن، مما تريد أن تعيش، إن كنت بلا أملاك؟»

«لم يسبق لي أن فكّرت في ذلك، أيها السيد. بقيت ثلاثة أعوام وأكثر بلا أملاك، ولم أفكّر يوماً مم أعيش.»

«كنتَ تعيش إذن على ما يملكه الآخرون.»

«الأمر هكذا على الأرجح. فالتاجر يعيش أيضاً على ملك الآخرين.»

«أحسنت القول. لكنّه لا يأخذ من الآخرين دون مقابل؛ بل يعطيهم، بدل ما يأخذ، من بضائعه.»

«يبدو الأمر فعلاً على هذه الحال. كلّ واحد يأخذ، وكلّ واحد يعطي، هكذا هي الحياة.»

«لكن، اسمح لي أن أسأل: إن كنت بلا أملاك، فماذا تريد أن تعطي؟»

«كل واحد يعطي ما لديه. يعطي المحارب قوته، والتاجر بضاعته. يعطي المعلّم التعليم، والفلاح الأرز، والصيّاد السمك.»

«صحيح، وأنت، ماذا تستطيع أن تعطي؟ ماذا تعلّمت، وماذا تتقن؟»

«أستطيع أن أفكّر. أستطيع أن أنتظر. أستطيع أن أصوم.»

«هذا هو، لا غير؟»

«أعتقد أنّ هذا هو!»

«وما نفع ذلك؟ خذ الصوم مثلاً، فما جدواه؟»

«إنه مفيد جداً، أيها السيد، إن كان إنسان ما بلا طعام، فإنّ الصوم أفضل طريق له وأكثره حكمة. فلو لم يتعلّم سدهارتا الصوم،

Arab_Books

مثلاً، لكان عليه اليوم أن يبحث عن عمل ما، لديك أم لدى سواك، لأنّ الجوع يجبره على ذلك. أمّا سدهارتا الذي هو كما علمتَ، فيستطيع أن ينتظر هادئاً، لا يعرف نفاد الصبر، لا يعرف الضيق، يتحمّل أن يحاصره الجوع أمداً طويلاً وهو يضحك منه. لذلك، أيها السيد، يفيد الصوم.»

«أنت على حقّ، يا سمانيا. انتظر لحظة!»

خرج كمسْوامي وعاد بملفّ، ناوله للضيف سائلاً: «هل تستطيع قراءة ذلك؟»

نظر سدهارتا إلى الملفّ الذي وُضع فيه عقد بيع، وبدأ بتلاوة مضمونه.

«رائع -قال كمسْوامي- وهل تريد أن تكتب لي شيئاً على هذه الورقة؟»

ناوله ورقة وريشة، فكتب سدهارتا وأعاد الورقة إليه.

قرأ كمسْوامي: «الكتابة حسنة، لكن أحسن منها التفكير. الذكاء حسن، لكن أحسن منه الصبر.»

«تتقن الكتابة على نحو ممتاز -مدح التاجر- ربّ أمر سنتباحثه بعد. أمّا الآن، فأدعوك أن تنزل ضيفاً عندي وتقيم في بيتي.»

شكر له سدهارتا وقبل. فصار يسكن في بيت التاجر. جُلبت له الثياب والأحذية، وكلّ يوم يعدّ له أحد الخدم الحمّام. مرّتين في النهار مُدّت في الدار مائدة غنية، لكنّ سدهارتا تناول وجبة واحدة في اليوم وحسب وامتنع عن أكل اللحم والنبيذ. أخبره كمسْوامي عن تجارته، وأطلعه على بضائع ومخازن وحسابات. تعلّم سدهارتا أموراً جديدة كثيرة، إذ أكثر في الاستماع وقلّل من الكلام. متذكّراً كلمات كمالا،

Arab_Books

توخّى ألاّ يخضع للتاجر، وأجبره على معاملته كندّ له، بل كأكثر من ذلك. كان كمسْوامي يزاول أعماله بعنايه، وغالباً بشغف. أمّا سدهارتا فتعامل معها وكأنّها لعبة يسعى إلى تعلّم قواعدها بدقّة، لكن، من دون أن يمسّ فحواها قلبه.

لم يمض زمن طويل على إقامته في بيت كمسْوامي، حتى بدأ يشارك في صفقات صاحب الدار. إلاّ أنّه كان يزور كمالا الجميلة كلّ يوم، في ساعة تحدّدها، بثياب جميلة وحذاء أنيق. وبعد قليل بدأ يحضر لها الهدايا أيضاً. كم علّمه فمها الأحمر الذكيّ، كم علّمته يدها الرقيقة اللبّنة، علّمته، هو الفتي بعد في الحبّ، والميّال إلى الغوص في اللّذة، نهماً وجزّافاً، كما لو غاص في غور بلا قرار. علّمته التعليم كلّه من أساسه: أن ما من لذّة تُنال من دون أن تُمنح، وأنّ لكلّ إيماءة، لكلّ لمسة ومداعبة، لكلّ منظر وموضع في الجسد، سرّاً خاصاً به، يُسعد إيقاظه قلب العارف. علّمته أنّ على العاشقين ألاّ يفترقا، بعد احتفال الحبّ، من دون أن يبدي أحدهما الإعجاب بالآخر، ومن دون أن يتبدّى أمامه مغلوباً وغالباً على السواء لئلا ينتاب أحدهما البشم أو الخواء، والشعور الخبيث بأنّه استغلّ أو استُغلّ. أمضى سدهارتا ساعات رائعة لدى المعلّمة الجميلة والذكية، صار لها تلميذاً وعشيقاً وصاحباً. هنا، عند كمالا، كمن معنى حياته الحالية وقيمتها، لا في صفقات كمسْوامي وتجارته.

عهد التاجر إليه صياغة أهمّ الرسائل والعقود، واعتاد أن يتشاور معه في كلّ المسائل المهمّة. سرعان ما رأى أنّ سدهارتا لا يفهم كثيراً في التجارة والملاحة، في الأرز والصوف، غير أنّه محظوظ وصاحب يد ماهرة، وأنّ سدهارتا يتفوّق عليه، هو التاجر، في الأناءة والاتّزان، وفي فنّ الإصغاء إلى الآخرين والنفاذ إلى بواطنهم.

Arab_Books

«هذا البرهمي -قال لصديق له- ليس تاجراً حقيقياً، ولن يصير تاجراً يوماً. نفسه ليست مشغوفة بالتجارة البتّة. لكنّه صاحب سرّ، مثل ذلك الذي يُقبل عليه النجاح من تلقائه، سواء بفضل نجمة سعيدة تهديه، أم بفعل سحر يملكه أو حيلة تعلّمها عند السمانيين. دائماً يبدو وكأنّه يلعب بالتجارة ويتلهّى، وما من مرة تأخذ فيها التجارة بلبّه أو تستحوذ عليه. ما من مرّة يخشى فيها الإخفاق أو يحفل بالخسارة.»

نصح الصديق التاجر: «اعطِ له بدل الأعمال التي يديرها لصالحك، ثلثا من الربح، واخصم عليه النسبة نفسها من الخسارة إن حصلت. هكذا سيجتهد أكثر.»

اتبع كمسْوامي النصيحة، لكنّ سدهارتا لم يبال بالأمر كثيراً. إن حصد ربحاً، تقبّله هادئاً رزيناً، وإن أصابته خسارة ضحك يقول: «يا لها من صفقة خائبة!»

فبدا حقّاً وكأنّ التجارة لا تعنيه. ذات يوم سافر إلى قرية ليشتري منها كميّة كبيرة من محصول الأرز. لكن، لما وصل إليها كان الأرز قد صار في حوزة تاجر آخر. مع ذلك، أمضى سدهارتا بضعة أيام في تلك القرية. ضيّف الفلاحين، أجزل لأطفالهم من العملة النحاسية، شارك في حفلة عرس، وعاد من رحلته راضياً كلّ الرضى. عاتبه كمسْوامي على التلكّؤ في العودة وعلى تضييع الوقت والمال. وسدهارتا أجاب: «دع عنك اللوم، أيها الصديق العزيز! ما من إنجاز أُنجز يوماً بالعتاب واللوم. إن حصلت خسارة، فاتركني أتحمّل الخسارة. إنّي راض جداً بهذه الرحلة. تعرّفت إلى أناس من شتّى الأنواع: أحد البراهمة صار صديقي، أطفال ركبوا على ركبتيّ، فلاّحون أخذوني إلى حقولهم، ما من أحد ظنّني تاجراً.»

Arab_Books

«هذا كلّه لطيف جداً -صاح كمسْوامي بامتعاض- لكنّك، في الحقّ، تاجرٌ، على ما أظنّ! أم أنّك سافرت لمجرّد متعتك؟»

«بالتأكيد -ضحك سدهارتا- بالتأكيد سافرت لمتعتي. وهل ترى أنّ لي غرضاً آخر؟! تعرّفت إلى أناس ومناطق، متنعّماً بما وجدته من لطف وألفة وصداقة. لكن، لو كنت كمسْوامي، أيها العزيز، لعدت أدراجي عجولاً ومتبرّماً، حال اكتشافي بطلان الصفقة، ولضاع عليّ الوقت والمال. أمّا أنا فأمضيت أيّاماً جيّدة، تعلّمت وتنعّمت بالفرح، ولم أُسِئْ إلى نفسي ولا إلى غيري بالامتعاض والتسرُّع. وإن شاءت الأقدار أن أعود إلى هناك في يوم من الأيام، لشراء المحصول، ربّما، أو لأي غرض من الأغراض، سيستقبلني أناس لطفاء بمودّة وفرح، وسأهنّئ نفسي لأنّني امتنعت في المرّة الأولى عن التسرّع وإبداء الاستياء. دع الأمر إذن، يا صديقا، ولا تضرّ نفسك بالعتاب واللوم! وإن جاء يوم تقول فيه: إنّ السدهارتا هذا صار يضرّني، فلك أن تتلفّظ بكلمة واحدة وسدهارتا سيرحل. أمّا إلى ذلك الحين، فلنكن راضيين، واحدنا بالآخر.»

وعبثاً حاول التاجر إقناع سدهارتا بأنّه يأكل من خبزه، من خبز كمسْوامي. سدهارتا يأكل خبزه الخاص، أو بالأحرى، كلاهما يأكلان من خبز الآخرين، خبز الجميع. ما من مرّة، لاقت فيها هموم كمسْوامي أذناً صاغية عند سدهارتا، وكان كمسْوامي مهموماً جداً. حين دبّر صفقة يهدّدها الإخفاق، أو حين بدا أنّ طلبية من البضائع قد ضاعت، أو أنّ مَديناً لا يقدر على تسديد الدين، لم يستطع كمسْوامي، ولو مرّة، أن يقنع مساعده بأنّه يفيد أن ينبس المرء بألفاظ الكرب أو الغضب، أن يقطّب جبينه وينام نوماً مضطرباً. وحين اعترض له كمسْوامي، ذات مرّة،

Arab_Books

قائلاً إن كلّ ما يتقنه، إنما تعلّمه منه، أجاب سدهارتا: «ليتك تعدل عن التندّر عليّ والعبث! تعلّمت منك ما ثمن سلّة من السمك، وما نسبة الفائدة التي تُطلب للمال المستدان. فهذه هي علومك. لكنّي لم أتعلّم منك التفكير، أيها الكمسْوامي العزيز، فتحرَّ أنت أن تتعلّمه مني.»

حقّاً، أين كانت نفسه من التجارة! لقد نفعته الأعمال لكسب المال من أجل كمالا، وأغدقت عليه أضعاف ما يحتاج. لكن، فيما عدا ذلك، لم يكن لسدهارتا من اهتمام وفضول إلاّ في مراقبة البشر. فشؤونهم وصناعاتهم، همومهم وأفراحهم وحمقاتهم كانت غريبة عنه وبعيدة بعد القمر. لكن، مهما سهل عليه أن يتواصل مع الجميع، أن يتعايش معهم ويتعلّم منهم، فإنّه أدرك كذلك أنّ شيئاً يفصله عنهم، وأنّ هذا الفاصل هو كونه سمانياً. لقد رأى الأنام مستغرقين في نمط طفولي أو حيواني، يحبّه ويكرهه على السواء. رآهم يجهدون، رآهم يتألّمون ويشيبون من أجل أمور بدت له غير جديرة إطلاقاً بهذا الثمن، من أجل المال، من أجل لذّات صغيرة أو أمجاد ضئيلة. رآهم يتشاجرون ويتناحرون. رآهم ينحبون لآلام يضحك منها السماني، ويعانون حرماناً أو عوزاً لا يحسّ به السماني.

فتح نفسه لكلّ ما جاء من هؤلاء الأنام. رحّب بالتاجر الذي يعرض عليه الكتّان، رحّب بالمديون الذي يطلب قرضاً، رحّب بالمتسوّل الذي يروي له قصّته، لساعة ونيف، وفقره لا يداني فقر أي سماني. عامل التاجر الأجنبي كما يعامل الخادم الذي يحلقه، والبائع الجوّال الذي يسمح له بأن يخدعه، عند شراء الموز، بمبلغ صغير. وكلّما جاء كمسْوامي، ليشكي له همومه، أو ليلومه على صفقة ما، استمع إليه بفضول

Arab_Books

وصفاء، متعجّباً لأمره، ملتمساً فهمه، موافقاً على بعض ما يقوله، مراعياً خاطره على قدر الحاجة، فينصرف عنه إلى شخص اخر يريده. وكم كثر المريدون! جاؤوا إليه أفواجاً ليتاجروا معه، وكثيرون منهم جاؤوا ليخدعوه، وليستدرجوه. وآخرون جاؤوا ليستدرّوا شفقته، وليطلبوا نصيحته. وهو... نصح وأشفق وأجزل وسمح لهم بأن يخدعوه قليلاً؛ وهذه اللعبة كلها، وشغف جميع المشاركين فيها، شغلا تفكيره، تماماً، كما شغلته ذات يوم الآلهة والبراهمان.

بين حين وآخر، أحسّ في أعماق صدره بصوت خافت، محتضر. ينذر خافتاً، يشكو خافتاً، فلا يكاد يسمعه. وبعدها ظلّ يتوجّس، لساعة أو أكثر، واعياً بأنّه يعيش حياة غريبة، بأنّ كلّ الأمور التي يواظب عليها، مجرّد لعبة، بأنّه منشرح وحتى مبتهج أحياناً، إلاّ أن الحياة الحقيقية جارية في الجوار، على بعد عنه، ولا تمسّه. فمثلما يلعب لاعب كرة بكراته، هكذا لعب بالتجارة وبالناس في محيطه، تفرّج عليهم مستغرقاً منهم لهواً محبباً؛ أما قلبه وينبوع ذاته فلم يكونا معه في كلّ ذلك. جرى الينبوع في محلّ ما وكأنّه بعيد عنه، جرى وجرى ينبوعاً غير مرئي، لم يعد له صلة بحياته. ومرّات ارتعب لمثل هذه الأفكار وتمنّى لو قُدّر له أن يشارك أيضاً بقلبه وبما له من شغف في هذه الأعمال اليومية الطفولية كلّها، أن يحيا حقّاً، أن يعيش ويفعل ويتمتّع، بدل أن يقف جانباً هكذا، مجرّد متفرج.

إلاّ أنه ظلّ يزور كمالا الجميلة دائماً، ظلّ يتعلّم فنّ الحبّ ويتمرّن على طقس اللذّة، الذي يمتزج فيه الأخذ بالعطاء ليولّدا وحدة أكمل منها في فنون أخرى. كان يحدّثها ويتعلّم منها، ينصحها ويتلقّى النصيحة.

Arab_Books

فهي تفهمه، أكثر مما كان يفهمه غوفيندا، آنذاك، وهي أقرب شبهاً به.

مرّة قال لها: «أنت مثلي، تختلفين عن معظم الناس. أنت كمالا، ولا شيء سواها. في داخلك سكينة، وملاذ، يمكنك ولوجه في أي ساعة شئت، فتنعمين فيه بإلفة البيت، مثلما يمكنني أن أفعل. قلّة من الناس تملك هذه القدرة، مع أنّ الجميع مجبولون عليها.»

«ليس الناس كلّهم أذكياء»، قالت كمالا.

«لا -قال سدهارتا- لا يعود السبب إلى ذلك. كمسْوامي لا يقلّ عنّي ذكاء، ومع ذلك لا ملاذ له في ذاته. آخرون يملكونه وفهْمهم لا يتعدّى فهم الأطفال الصغار. معظم الناس، يا كمالا، يشبهون أوراقاً متساقطة، أوراقاً ترفّ وتلفّ في مهبّ الريح، فتهوي مترنحة إلى الأرض. لكنّ آخرين، قليلين، يشبهون النجوم، يسيرون في مسار ثابت، لا تمسّهم الرياح، وفي ذواتهم لهم ناموسهم ومسارهم. بين كلّ العلماء والسمانيين، الذين عرفت منهم كثراً، ثمّة واحد مكتمل من هذا النوع، لن أنساه يوماً. إنّه ذلك الغوتاما، المتعالي، المبشِّر بذلك التعليم. ألف تلميذ يصغي إلى تعليمه كلّ يوم، ويتبع تعليماته كلّ ساعة، لكنّهم جميعاً أوراق متساقطة، ليس لهم في ذواتهم التعليم ولا الناموس.»

تأمّلته كمالا بابتسامة. قالت: «من جديد تتكلّم عنه، من جديد تفكّر أفكار السماني.»

صمت سدهارتا، ولعبا لعبة الحبّ، واحدة من الألعاب المختلفة، الثلاثين أوالأربعين، التي تعرفها كمالا. كان جسدها ليّناً ليونة الجاغوار وقوس الصيّاد؛ من يتعلّم منها الحبّ، يعلم بالكثير من اللذّات والأسرار. طويلاً لعبت مع سدهارتا، تجذبه وتنبذه، ترغمه وتطوّقه وتغتبط ببراعته، إلى أن أمسى مغلوباً وراقداً إلى جانبها مضنى القوة.

Arab_Books

انحنت السريّة عليه وأطالت النظر إلى وجهه، وإلى عينيه الواهنتين.

قالت متفكّرة: «أنت أفضل عشيق عرفتُه. أنت أكثر قوة من غيرك، وأكثر ليونة وطوعاً. جيداً تعلّمت منّي، يا سدهارتا. يوماً ما بعد أن أكبر قليلاً أريد أن أنجب منك طفلاً. ومع ذلك، يا عزيزي، ما زلتَ سمانياً، مع ذلك لا تحبّني، ولا تحبّ أي إنسان. أليس كذلك؟»

«الأمر هكذا، على الأرجح -قال سدهارتا متعباً- أنا مثلك وأنت أيضاً لا تحبّين، وإلاّ... فكيف أمكنك أن تزاولي الحبّ كحرفة؟ أمثالنا من البشر يعجزون، ربما، عن الحبّ. الأنام الأطفال يستطيعون أن يحبّوا... فهذا سرّهم.»

Arab_Books

سانْسرا

أمداً طويلاً عاش سدهارتا حياة العالم والملذّات، من دون أن ينتمي إليها. حواسّه التي أماتها في سنوات الزهد الحارّة، عادت واستيقظت، ذاق الغنى، ذاق الشهوة والسلطان؛ ومع ذلك ظلّ زمناً طويلاً سمانياً في قلبه، الأمر الذي لم يغب عن كمالا الفاطنة. دائماً كان فنّ التفكير والانتظار والصوم هو الذي حدّد وجهة حياته، دائماً ظلّ الأنام المنتمون إلى حياة العالم -الأنام الأطفال- غرباء عنه، ولم يزالوا، مثلما ظلّ هو غريباً عنهم.

انصرمت الأعوام، ومتلفّعاً بالرفاهية، لم يكد سدهارتا يشعر بتضاؤلها. لقد اغتنى وصار يملك، منذ أمد، بيتاً له وحاشية من الخدم وبستاناً، خارج المدينة على ضفّة النهر. استلطفه الناس، جاؤوا إليه حين كان بهم حاجة إلى المال أو النصيحة، لكن لا أحد كان أليفاً له، سوى كمالا.

أمّا تلك اليقظة العالية المتوقّدة، التي خبرها يوماً، في مقتبل الشباب، في الأيام بعد موعظة غوتاما وبعد فراق غوفيندا، ذلك الترقّب المشدود، ذلك الانفراد النبيل دونما تعاليم ومعلّمين، ذلك التأهب الرشيق

Arab_Books

للإصغاء إلى الصوت الإلهي في صميم القلب أمسى شيئاً فشيئاً ذكرى، ككلّ الأشياء الفانية. بعيداً وخافتاً هدر الينبوع المقدّس، الذي كان بالأمس قريباً الذي هدر بالأمس داخل ذاته. صحيح أنّ أشياء كثيرة مما تعلّمه عند السمانيين، ومن غوتاما وأبيه البرهمي، ظلّت حيّة فيه أمداً طويلاً: الاعتدال في الحياة، الغبطة بالتفكير، ساعات الاستغراق، العلم الخفيّ بالذات، وبالأنا السرمدي الذي ليس جسداً ولا وعياً. صحيح أنّ بعض الأشياء ظلّت فيه، لكنّها كانت تهبط إلى القاع رويداً رويداً وتحتجب تحت طبقة من الغبار. مثلما يبقى دولاب الفخاري بعد الدفع منطلقاً، ويدور طويلاً قبل أن يبطئ في الدوران ويتوقّف، هكذا ظلّت، في نفس سدهارتا، عجلةُ الزهد، عجلة التفكير، التمييز، مستمرّة في الدوران وكانت ما تزال تدور، لكنّها دارت بطيئة ومتردّدة وأوشكت على التوقّف. بطيئاً، مثلما تتسرّب الرطوبة إلى جذع شجرة محتضرة، فتملؤه ببطء وتجعله عفناً، انسلّ العالم إلى نفس سدْهارتا، والخمول. ملأها رويداً، أثقلها، أوهنها، خدّرها. في المقابل، استيقظت حواسه، تعلّمت أشياء وأشياء واختبرت.

لقد تعلّم سدهارتا أن يزاول التجارة، أن يمارس سلطة على الناس، ويتسرّى بالمرأة ويتمتّع، تعلّم أن يرتدي ثياباً أنيقة، ويأمر الخدم، ويستحمّ في مياه معطّرة. تعلّم أن يأكل وجبات محضّرة برفق وعناية، أن يأكل السمك واللحم والطيور، والتوابل والحلويات، ويشرب النبيذ الذي جعله خاملاً وميّالاً إلى النسيان. تعلّم أن يلعب النرد والشطرنج، ويتفرّج على الراقصات، ويتنقّل في الهودج محمولاً، وينام في سرير ناعم طريّ. لكن دائماً، ظلّ يحسّ نفسه مختلفاً عن الآخرين ومتعالياً عليهم، دائماً

Arab_Books

كان يتفرّج عليهم ببعض تهكّم، ببعض ازدراء متهكّم، أو قلْ بذلك الازدراء عينه الذي يكنّه السماني للناس الدنيويين. حين كان كمسْوامي متوعّكاً أو متنغّصاً، حين أحسّ نفسه مهاناً أو قرضته همومه التجارية -دائماً كان سدهارتا منه بالمرصاد، متهكّماً. بطيئاً وعلى نحو غير محسوس، فقط، مع انصرام مواسم الحصاد والأمطار، تراخى تهكّمه ونضب تعاليه. بطيئاً، فقط، وبين ثرواته المتنامية، اكتسب سدهارتا شيئاً من طبع الأنام الأطفال، شيئاً من طفوليتهم وقلقهم. ومع ذلك حسدهم، وزاد حسده لهم، كلّما صار بهم أقرب شبهاً. كان يحسدهم على الشيء الوحيد الذي ينقصه وهم يملكونه، على ما ينسبونه إلى حياتهم من خطورة وأهميّة، على غلوهم في الفرح والفزع، على السعادة العطوبة والعذبة، على السواء، لإغرامهم السرمدي؛ فبأنفسهم، بنسائهم وأطفالهم، بالمجد أو المال، بالخطط والآمال، كان هؤلاء الأنام مغرمين أبداً. لكنّه لم يستطع أن يتعلّم منهم هذا، هذا بالذات، هذا الفرح الطفولي، وهذا البله الطفولي؛ ما تعلّمه منهم كان المنفّر عينه الذي يحتقره. مراراً وتكراراً وجد نفسه صباحاً، بعد سهرة عامرة، متكاسلاً في الفراش، فأحسّ بالبلادة والإعياء. مرّات، انتفض متبرّماً ونافد الصبر، إذا ما أضجره كمسْوامي بهمومه. ومرّات، ضجّ في الضحك وتمادى إذا خسر في لعب النرد. كانت ملامحه ماتزال أكثر ذكاء وتسامياً من غيرها، لكنّها قلّما تألّقت مبتسمة، واتخذت، تدريجياً، تلك السيماء التي يجدها المرء، غالباً، في وجوه أهل الغنى، سيماء الضجر والسقم والاستياء والخمول ونقصان المحبّة. بطيئاً انسلّ إلى نفسه داء الأغنياء واستولى عليه.

Arab_Books

مثل حجاب، مثل ضباب دقيق النسج، انسدل الكلل على سدهارتا، رويداً انسدل، ازداد كلّ يوم كثافة، ازداد كلّ شهر كحولاً وكلّ سنة ثقلاً. مثلما يبلى ثوب جديد ويبهت لونه الجميل على مرّ الزمن، ويمتلئ بالبقع والطيّات، وترثّ حواشيه وتظهر فيه، هنا وهناك، رقع بائسة متهلهلة، هكذا شاخت حياة سدهارتا الجديدة، التي بدأها بعد فراق غوفيندا، هكذا فقدت، بتوالي السنين، اللون والرونق، وتجمّعت فيها اللطخات والتجعّدات. ومخفياً في القاع بعد ومطموراً، لكنْ مطلاً بقبح هنا وهناك، تربّص فيها القرف والخيبة. لم ينتبه سدهارتا للأمر. لاحظ فقط، أنّ ذلك الصوت الداخلي، الباهر واليقيني، الذي استيقظ فيه ذات يوم ولازمه هادياً في أيامه الساطعة، أمس صامتاً.

فقد استحوذ عليه العالم، اللذّة، الطمع، الخمول، وآخر الأمر، تلك الرذيلة عينها التي احتقرها وسخر منها دوماً، بوصفها أتفه الرذائل طراً: الجشع. وكذلك استحوذت عليه، في النهاية، الثروة، الأموال والأملاك، ولم تبق عنده مجرّد لعب ولهو، بل أمست أغلالاً له وأوزاراً. على طرق غريبة وخبيثة، وقع سدهارتا في شرك هذا الإدمان الأخير والأسخف: من خلال المقامرة. فمنذ ذلك الوقت الذي كفّ فيه عن أن يكون سمانياً في قلبه، بدأ سدهارتا يثافن اللعب بالمال والنفائس، الذي شارك فيه قبلاً مبتسماً ولامبالياً، بوصفه عادة من عادات الأنام الأطفال، وبدأ يدمن عليه بغلّ وشغف متزايدين. كان لاعباً مخيفاً، وقليلون جرؤوا على مجاراته، لجسارته في رفع الرهان. كان يزاول اللعب من ضيق في قلبه، ففي خسارة المال الحقير وتبذيره وجد لذّة حنقة، وما من وسيلة أخرى استطاع بها أن يعرض احتقاره للغنى، لصنم التجّار، على نحو أجلى

Arab_Books

وأكثر سخرية. هكذا لعب، رافعاً الرهان بلا رحمة، كارهاً ذاته، ساخراً منها. كان يربح الآلاف، ويرمي الآلاف، يخسر المال، يخسر المجوهرات، يخسر بيتاً في الريف، يربح من جديد، فيخسر من جديد. وذلك الخوف، ذلك الخوف المرعب والمقبض الذي شعر به لحظة رمي الزهر، لحظة القلق على رهان كبير، ذلك الخوف - كم كان يحبّه ويسعى دوماً إلى تجديده، إلى تفعيله، إلى تهييجه أكثر، إذ في هذا الشعور وحده ظلّ يحسّ بشيء من السعادة، بشيء من النشوة، بشيء من حياة أسمى، وسط حياته المشبعة، الفاترة، البائخة. وبعد كلّ خسارة كبيرة طمح بثروة جديدة، زاول التجارة باجتهاد أكبر، أجبر مدينيه على الدفع بإلحاح أصرم، لأنّه كان يريد أن يستمرّ في اللعب، أن يستمرّ في التبذير وفي إظهار احتقاره للغنى. فقد سدهارتا رزانته لحظة الخسارة، فقد صبره إزاء المدينين المتقاعسين، فقد طيبته إزاء المتسوّلين، فقد الرغبة في إهداء المال وإقراضه للطالبين. وهو، الذي خسر ضاحكاً عشرة آلاف بضربة زهر واحدة، صار في التجارة أكثر صرامة وأصغر نفساً، وحلم ليلاً بالمال أحياناً! وكلّما استيقظ من هذا السحر القبيح، كلّما رأى وجهه، المتزايد القبح والكهولة، في المرآة على حائط غرفة النوم، كلّما انتابه الخجل أو القرف، أكمل هروبه، هرب إلى لعب قمار جديد، هرب إلى غيبوبة الشهوة والنبيذ، وعاد منها إلى غريزة الكسب والتكدّس. في هذا الدوران الخالي من المعنى، دار، إلى أن تعب وشاخ وسقم.

إذ ذاك أنذره، ذات ساعة، حلم رآه. كان قد أمضى ساعات المساء عند كمالا، في حديقتها الفاتنة. جلسا تحت الأشجار يتحدّثان، وكمالا قالت كلمات مقلقة، كلمات يختبئ وراءها الحزن والكلل. توسّلت إليه

Arab_Books

أن يحدّثها عن غوتاما، وكانت متلهّفة لسماع المزيد: كم عينه نقية، كم فمه هادئ وجميل، كم ابتسامته رحيمة، كم مشيته ساكنة... فطويلاً كان عليه أن يقصّ لها قصّة البوذا المتعالي، وكمالا تنهّدت وقالت: «يوماً ما، أو قريباً، ربما، سأنضم أيضاً إلى هذا البوذا. سوف أهدي له حديقتي وألتجئ إلى تعليمه.» لكن بعد ذلك، بادرت بإثارته وضمّته، في لعبة الحبّ، إلى جسدها بوله وجوى، بين عضّات ودموع، كأنّها تريد أن تعصر هذه اللّذة الباطلة الفانية مرّة أخرى، لتنال منها آخر قطرة من العذوبة. لم يسبق لسدهارتا أن أدرك يوماً، بمثل هذا الوضوح الغريب، كم صلة القربى وشيجة، بين الشهوة والموت. بعدها رقد إلى جانبها، ومحيّا كمالا قريب منه، فقرأ تحت عينيها وعلى حافة شدقيها، لأوّل مرّة بوضوح كتابة قلقة، كتابة محفورة بخطوط رقيقة وغضون خفيفة، كتابة تذكّر بالخريف والشيخوخة، مثلما كان سدهارتا نفسه، الذي مازال في الأربعين، قد اكتشف، هنا وهناك خصلات بيضاء، في شعره الأسود. كان تعب مكتوباً على وجه كمالا الجميل، تعب من السير في طريق لا تنتهي إلى غاية مفرحة، تعب وذبول بادئ، وقلق مسكوت عنه، مكبوت، أو غير معلن بعد: خوف من الشيخوخة، خوف من الخريف، خوف من تحتّم الموت. مهموماً ودّعها سدهارتا، ونفسه ملآى بالقلق والوجل المكتوم.

بعد ذلك أمضى سدهارتا الليل في بيته، ساهراً على النبيذ والراقصات. تظاهر أمام أنداده بالتفوّق وهو لم يعد عليهم متفوّقاً. شرب نبيذاً كثيراً، فأقبل على فراشه بعدما انتصف الليل، متعباً وواجفاً، وموشكاً على البكاء واليأس. نشد النوم طويلاً بلا جدوى، وقلبه ناضح

Arab_Books

ببؤس حسب نفسه غير قادر على تحمّله، ناضح بقرف أحسّ نفسه مغموراً به، كما غمره مذاق النبيذ الفاتر الكريه، كما غمرته الموسيقى المجدبة المفرطة في ا نحلا، وابتسامات الراقصات المسرفة النعومة، والرائحة المفرطة في العذوبة، الفائحة من الشعر والنهود. لكن أشدّ من هذا القرف كلّه، كان اشمئزازه من نفسه، من شعره المعطّر، من رائحة النبيذ في فمه، من تعب بشرته المترهّلة وتراخيها. مثل امرئ يفرط في الأكل والشرب، فيتقيأ متألماً ويرتاح بعدها من عذابه، هكذا تمنّى العاجز عن النوم في غمرة قرف جارفة، أن يتخلّص من هذه المتع، من هذه العادات، من هذه الحياة التافهة كلّها... ومن نفسه. في غلس الفجر فقط، حين بدأ النشاط يدبّ في الشارع أمام بيته، غفا ونال، للحظات قليلة، نصف تخدّر ومسحة من النوم. في هذه اللحظات رأى حلمه:

كان لدى كمالا، في قفص مذهّب، عصفور مغرّد نادر صغير. بهذا العصفور حلم: صمت هذا العصفور الذي كان يغرّد عادة في ساعات الصباح، ولما انتبه للأمر، دنا من القفص ونظر إليه. وإذا بالعصفور الصغير هامد ومتصلّب على أرض القفص. أخرجه وزانه لحظة في يده، ثمّ ألقى به إلى الزقاق، وفي اللحظة نفسها ارتعب ارتعاباً شديداً، وتوجّع في قلبه، كما لو التقى بهذا العصفور الميت كلّ ما هو قيّم فيه وخيّر، وتخلّى عنه.

منتفضاً من هذا الحلم، أحسّ نفسه محاطاً بحزن عميق، من دون قيمة -هكذا بدا له- من دون قيمة ولا معنى انقضت حياته. لم يبق بين يديه أي شيء حيّ، أي شيء لذيذ، أي شيء يجدر الاحتفاظ به. وحيداً

Arab_Books

كان، وفارغاً، ملقى على شاطئ ما، مثل راكب سفينة غارقة.

مكفهّراً ذهب سدهارتا إلى حديقة له، أغلق البوابة وجلس تحت شجرة مانجو. شعر بالموت في قلبه وبالهلع في صدره، جلس وشعر بالموت في داخله، بالذبول، بدنو النهاية. شيئاً فشيئاً جمّع أفكاره وسار في ذهنه ثانيةً مسار حياته كلّها، بدءاً بالأيام الأولى التي تعود إليها ذاكرته. متى، يا ترى، أحسّ بسعادة، متى شعر بغبطة حقيقية؟ آه، نعم... حدث ذلك غير مرّة. في سنوات الصبى ذاق السعادة، حين كان يفوز بمديح البراهمة، ويتفوّق على الرفاق من عمره في إنشاد الأبيات المقدّسة، وفي السجال مع العلماء أو معاوناً في رفع القرابين. يومذاك شعر بالسعادة في قلبه: «أمامك طريق، امض فيها، فالآلهة في انتظارك». ومرّة أخرى في زمن الشباب، حين فصله، عن جمع الهواة المتجانس، وعلاّه عليهم، ما لكلّ تفكّر من غاية تهبّ إلى الأعلى أبداً، حين تحرّق لفهم معنى البراهمان، حين أشعلت فيه كلُّ معرفة مكتسبة نار ظمأ جديد، حينذاك سمع وسط العطش والألم، ثانية، الصوت نفسه: «امض، امض إلى الأمام! أنت مصطفى!». لقد نادى به هذا الصوت حين غادر مسقط رأسه واختار حياة السمانيين، ونادى به ثانية، حين رحل عن السمانيين إلى ذلك المكتمل، ورحل عنه إلى المجهول. كم من الوقت مضى، وهو لم يسمع هذا الصوت، ولم يرتق أي قمة، وكم أمست طريقه خاوية ومجدبة. سنوات طويلة عديدة، بلا هدف، بلا عطش، بلا غبطة، مكتفياً بملذات صغيرة، ومع ذلك غير راض أبداً! طوال هذه السنين حاول، من دون أن يدري، لا بل اشتاق إلى أن يصير إنساناً مثل أولئك الكثيرين، أولئك الأطفال، وأثناءها أمست حياته أفقر من حياتهم

Arab_Books

وأكثر بؤساً، لأنّ أهدافهم لم تكن أهدافه، ولا همومهم همومه، لأنّ كلّ هذا العالم العامر بأمثال كمسْوامي لم يكن عنده سوى لعبة، سوى رقصة، سوى ملهاة يتفرّج عليها. كمالا وحدها كانت حبيبة له وعزيزة عليه -لكن، أما تزال كذلك؟ أما يزال يحتاج إليها أو تحتاج إليه؟ ألا يلعبان لعبة لا نهاية لها؟ أمن الضروري أن يعيش من أجل ذلك؟ لا، ليس هذا ضرورياً! هذه اللعبة اسمها سانْسرا، لعبة للأطفال هي، لذيذة، ربّما، إن لعبها المرء مرّة، مرّتين، عشراً... لكن، عودا إلى بدء أبداً!؟

حينذاك عرف سدهارتا أن اللعبة انتهت. أنّه لم يعد قادراً على لعبها. سرت في جسده رجفة، ففي داخله -هكذا أحسّ- مات شيء ما.

طوال ذلك النهار ظلّ جالساً تحت شجرة المانجو، متذكّراً أباه، متذكّراً غوفيندا، متذكّراً غوتاما. أكان عليه أن يرحل عنهم ليصير من أمثال كمسْوامي؟ كان مايزال جالساً حين هبط الليل. ولما رفع رأسه ورأى النجوم، فكّر: «هنا أجلس إذن، تحت شجرة المانجو التي لي، في الحديقة التي أملكها.» فابتسم قليلاً... أكان من الضروري والصواب أن يملك شجرة مانجو، أن يملك حديقة! أم أنّها مجرّد لعبة بلهاء؟

فطوى هذه الصفحة كذلك، ومات فيه هذا أيضاً. نهض وودّع شجرة المانجو، ودّع الحديقة. ولأنه قضى النهار كلّه بلا طعام، بدأ يحسّ بجوع شديد، فتذكّر بيته في المدينة، تذكّر غرفته وسريره، والمائدة المليئة بالطعام. ابتسم متعباً، انتفض وودّع تلك الأشياء.

في الساعة الليلية نفسها غادر سدهارتا حديقته، غادر المدينة ولم يعد قط. طويلاً بحث عنه رجال كمسْوامي الذي ظنّه بين أيدي قطّاع الطرق. لم تبحث عنه كمالا. حين علمت أن سدهارتا اختفى، لم تندهش،

Arab_Books

ألم تتوقّع ذلك دائماً؟ أليس من السمانيين، وإنساناً بلا وطن، في حجّ مستمرّ؟ وكم شعرت بذلك، في كلّ وضوح، عند لقائهما الأخير، وكم فرحت، رغم ألم الفراق والخسارة، لأنّها، في ذلك اللقاء الأخير، ضمّته إلى صدرها بكلّ حرارة، وأحسّت نفسها، مرّة ثانية، مملوءة ومغمورة به كلياً.

عندما بلغها أوّل خبر عن رحيل سدهارتا، اقتربت من النافذة، حيث احتفظت بعصفور مغرّد نادر، مسجوناً في قفص مذهّب. ففتحت باب القفص، وأخرجت منه العصفور وأطلقته يطير. طويلاً تابعته بنظراتها، العصفور المحلّق. منذ ذلك اليوم امتنعت عن استقبال الزوّار وأبقت بيتها مغلقاً. لكن بعدها بأمد قصير أدركتْ أنّها، منذ اللقاء الأخير لسدهارتا، حامل منه.

Arab_Books

في جوار النهر

طاف سدْهارتا في الغابة، بعيداً عن المدينة، وهو لا يعلم أي شيء سوى أنّ لا عودة له، أنّ هذه الحياة، التي عاشها أعواماً طويلة، التي ذاق منها وتشرّب بها حتى التقزّز، قد انتهت ونضبت. ميتاً كان العصفور المغرّد الذي حلم به. ميت، العصفور في قلبه. عميقاً غرق في السانْسرا، بالقرف والموت تشبّع من كلّ أطرافه، امتصّهما كما يمتصّ الإسفنج الماء إلى أن يمتلئ به. فأمسى ممتلئاً بالاشمئزاز، بالتعاسة، بالموت، ولم يبق في العالم ما يمكن أن يغريه، ويبهجه ويكون له عزاء.

بلهفة تمنّى أن ينسى ذاته، أن يرتاح ويموت. لو تصيبه صاعقة فتقضي عليه! لو يأتي نمر فيفترسه! لو يوجد نبيذ أو سمّ يمنحه تخدّراً، نسياناً، نوماً لا يعود يصحو منه! من قذارة لم يتلوّث بها؟ أمن خطيئة أو حماقة لم يرتكبها؟ أمن وحشة لم يبتل بها نفسَه؟ أما زال في وسعه أن يعيش؟ أن يأخذ نفساً، مرّة تلو أخرى، ويلفظ النفس، ويشعر بالجوع، ويأكل من جديد، وينام من جديد، ويضاجع من جديد؟ ألم يستنفد هذا الدوران؟ ألم ينته منه؟

سار سدهارتا حتى بلغ النهر الكبير في الغابة، النهر نفسه الذي

Arab_Books

عبره في صحبة المراكبي، ذات يوم، حين كان شاباً، عائداً من مدينة غوتاما. إلى هذا النهر نزل، توقّف على الضفّة متردّداً. قد أضناه التعب والجوع، فما له يواصل السير، وإلى أين، إلى أي هدف؟ لا... لم تبق له أهداف، لم يبق سوى الاشتياق الموجع العميق إلى أن ينفض عن نفسه هذا الكابوس الفاحش كلّه، ويبصق هذا النبيذ البائخ، وينهي هذه الحياة الحقيرة، الملطّخة بالعار.

على الضفّة انحنتْ، مائلة إلى النهر، شجرةٌ، شجرة جوز الهند، على جذعها أسند سدهارتا كتفه، طوّق الجذع بذراعه ونظر إلى الماء الأخضر الذي كان يجري تحته ويجري، نظر إلى أسفل وقد استبدت به الرغبة في الانزلاق والغرق في هذه المياه. بخواء مرعب واجهه الانعكاس في الماء، وكان الفراغ المخيف في نفسه عنه جواباً. نعم... لقد بلغ النهاية. لم يبق له سوى أن يفني نفسه، أن يحطّم تشكيل حياته المفسود، ويقذفه بضحكة ساخرة إلى أقدام الآلهة. هذا هو التقيّؤ الكبير الذي اشتاق إليه: الموت، تحطّم الشكل الذي يمقت! فلتفترسه الأسماك، هذا الكلب سدهارتا، هذا المجنون، هذا الجسد الفاسد العفن، هذه النفس المترهلّة المنكّل بها! فلتنهشه التماسيح والأسماك، وتمزّقه العفاريت!

بوجه ممسوخ حدّق إلى الماء، رأى فيه انعكاس ملامحه، فبصق عليها. متعباً، أفلت ذراعه من جذع الشجرة، واستدار قليلاً، كي يهبط عمودياً إلى الماء ويغرق أخيراً. ومغمض العينين، أهوى على الموت.

في تلك اللحظة، ندّ عن أنحاء نائية في نفسه، عن ماضي حياته الوانية، صوتٌ. لفظ. كلمة نبس بها، بلا تفكير وبصوت غائب متلجلج: الفاتحة والخاتمة القديمة للصلوات البراهمانية كلّها: «أوم» المقدّس، الذي

Arab_Books

يعني «الكامل» أو «الكمال». وفي الوهلة التي طرق فيهما الأوم المقدّس أذن سدهارتا، استيقظت روحه الراقدة فجأة وأدركت سخف فعله.

ارتعب سدهارتا وارتعد. هكذا حاله إذن. هكذا اعتزل العمل كلّه، فبلغ به التيه والضلال حداً، لم يعد ينشد معه إلاّ الموت، فغذّى في نفسه هذه الأمنية، هذه الأمنية الطفولية: أن ينال السكينة بإفناء الجسد! لم يؤثّر فيه، كلّ ما عذّبه وفجّعه في تلك الأزمنة الأخيرة، بين الصحوة واليأس، تأثير اللحظة التي نفذ فيها الأوم إلى ضميره: أن يثوب إلى نفسه، ويدرك بؤسه وجنونه.

«أوم!» قال في سرّه: «أوم!»، وهو يعلم بالبراهمان، يعلم بالحياة اللافانية، يعلم من جديد بكلّ الإلهي الذي لفّه النسيان.

لكن، للحظة وومضة، وحسب. فإلى كعب شجرة جوز الهند انهار، وألقى هامته على جذورها وغرق في نوم عميق.

عميقاً كان نومه وخالياً من الأحلام. منذ أمد بعيد لم يذق سدهارتا نوماً كهذا. وعندما استيقظ بعد ساعة أو اثنتين، أحسّ وكأنّ عشر سنوات قد مضت. سمع هدير الماء الخفيف، من دون أن يدري أين هو ومَن أتى به إلى المكان، ففتح عينيه واندهش لرؤية الأشجار والسماء فوقه، فتذكّر أين هو وكيف وصل إلى مكانه. لكنّه تذكّر ببطء وأمضى ردحاً يستعيد الماضي، الذي بدا له كما لو كان متوارياً خلف سجاف، وموغلاً في البعيد والنائي، فلا يعود يعنيه البتّة. كان يعلم شيئاً واحداً، وحسب: أنّه فارق حياته السابقة (وبدت له هذه الحياة السابقة، للوهلة الأولى، مثل تقمّص سابق، موغل في القدم، لذاته الحالية أو مثل ولادة

Arab_Books

سابقة لها)، إنّه فارقها وأراد حتى التخلّي عنها في لحظة من اليأس والبؤس، إلاّ أنّه ثاب إلى نفسه، وعلى شفتيه لفظ الأوم المقدّس، على ضفّة نهر، تحت شجرة جوز هند، وأنّه غفي من ثمّ وينظر إلى العالم الآن، بعد الصحوة بعيني إنسان جديد.

هامساً ردّد في سرّه لفظ الأوم الذي غفي عليه، فبدا له، كما لو أنّ نومه الطويل كلّه، لم يكن سوى ترداد طويل للأوم، استغرق فيه، لم يكن سوى تفكير في أوم، غوص واندماج كلّي في أوم، اللامسمّى، المكتمَل.

يا له من نوم رائع! نوم لم يعهد مثله قط. فكم أنعشه وجدّده وأعاد إليه الشباب! أم أنّه مات حقاً، غرق وبُعث في هيئة جديدة؟ لكن، لا... إنّه يعرف نفسه، يعرف يديه وقدميه، يعرف المكان الذي يرقد فيه، يعرف هذه الذات في صدره، هذا السدهارتا، العنيد الغريب... إلاّ أنّه تحوّل، هذا السدهارتا، وتجدّد. صاحٍ هو، ويقظٌ على نحو عجيب، مبتهج ومليء بالفضول.

انتصب سدهارتا، فرأى أمامه شخصاً جالساً، رجلاً غريباً، راهباً في الرداء الأصفر، حليق الرأس، في إيماء التفكّر، تأمّل الرجل الذي لم يكن به شعر ولا لحية، ولم يستغرق في التأمّل طويلاً، حتى تعرّف في هذا الراهب على غوفيندا، صديق صباه، غوفيندا الذي التجأ إلى البوذا المتعالي. كانت علامات التقدّم في العمر بادية عليه أيضاً، لكنّ الملامح القديمة ما تزال في وجهه، تتكلّم بالاجتهاد والوفاء، والبحث والوجل. لكن، حين أحسّ غوفيندا بنظراته، ففتح العينين، ورمقه، رأى سدهارتا أن غوفيندا لا يعرفه. كان غوفيندا مسروراً برؤيته مستيقظاً، بعد أن طال جلوسه، على ما يبدو، وهو ينتظر يقظة رجل لا يعرفه.

Arab_Books

«كنت نائماً -قال سدهارتا- ماذا جاء بك إلى هنا؟»

«كنت نائماً -أجاب غوفيندا- وليس من الحكمة أن ينام المرء في ربع تكثر فيه الحيّات وتمرّ به مسالك حيوانات الغاب. أنا من تلاميذ غوتاما المتعالي، البوذا من عشيرة الساكيا، يا سيّدي، كنتُ ماراً من هذا الدرب مع جمع من إخواننا، ورأيتك مضطجعاً، نائماً في بقعة، حيث النوم مجازفة. فحاولت أن أوقظك، ولما رأيت أنّ نومك عميق جداً، تخلّفت عن ركب الإخوان وجالستك،. ثم غفوت على ما يبدو بدوري، أنا الذي أردت أن أحرس نومك. فعلى نحو سيء، أدّيت خدمتي، والنعاس غالبني. لكنّ الآن، وأنت مستيقظ، دعني أكمل المسير لألحق بإخواني.»

«أشكرك، يا سمانيا، لأنّك حرست نومي -قال سدهارتا- لطفاء أنتم، تلاميذ المتعالي. والآن، لك أن تمضي.»

«سأمضي يا سيّدي، ليكن السيد بخير دائماً.»

«أشكرك أيها السماني.»

أومأ له غوفيندا بالوداع وقال: «مع السلامة!»

«مع السلامة، غوفيندا» -قال سدهارتا.

فتسمّر الراهب.

«عذراً أيها السيّد، من أين تعرف اسمي؟»

عندها ابتسم سدهارتا.

«أعرفك يا غوفيندا، من كوخ أبيك، من مدرسة البراهمة، من السير لرفع القرابين، من رحيلنا إلى السمانيين، من تلك الساعة التي التجأت فيها إلى المتعالي، في البستان ييتافانا.»

Arab_Books

«أنت سدهارتا -صاح غوفيندا عالياً- الآن أعرفك، ولا أفهم لماذا لم أتعرّفك في الحال. أهلاً بك، يا سدهارتا! ما أكبر فرحتي بأن نلتقي ثانية.»

«يسرّني أيضاً أن أراك ثانية. كنتَ حارس نومي، فأجدّد لك شكري، وإن كنتُ في غنى عن حارس. إلى أين تمضي، أيها الصديق؟»

«لا مكان أمضي إليه. نحن الرهبان، على الطريق دائماً، إلاّ في موسم الأمطار. دائماً نطوف الأنحاء والأرجاء، نتبع القاعدة، نبشّر بالتعليم، نتقبّل الصدقات، ونكمل المسير. هذا ما هي الحال عليه دائماً. وأنت يا سدهارتا، إلى أين تسير؟»

قال سدهارتا: «حالي مثل حالك، يا صديقي، لا أسير إلى مكان، بل أنا على الطريق وحسب، على طريق الحجّ.»

قال غوفيندا: «تقول أنّك تحجّ وأصدّقك. لكن، سامحني إن قلتُ، يا سدهارتا، إنّك لا تبدو على هيئة من يحجّ. ترتدي لباس الأغنياء، تنتعل حذاء النبلاء، وشعرك، الذي تفوح منه رائحة المياه المعطّرة، ليس كشعر أحد الحجّاج أو السمانيين.»

«أحسنت المراقبة، أيها العزيز، عينك الثاقبة تلاحظ كلّ شيء. لكنّي لم أقل لك إنّي سماني، قلت إني أحجّ. وهذا ما أفعل: أحجّ.»

«تحجّ -قال غوفيندا- لكن قلّما يحجّ امرء بلباس كلباسك، وحذاء كحذائك وبمثل هذا الشعر. لم ألتق يوماً، أنا الذي أحجّ منذ أعوام طويلة، بحاجّ من هذا القبيل، وعلى هذه الهيئة.»

«أصدّقك، يا عزيزي غوفيندا، لكن الآن، اليوم، التقيتَ بحاجّ من هذا القبيل، بحذاء كهذا، وثوب كهذا. تذكّر، عزيزي: فإن هو، عالم

Arab_Books

التشكّلات، وفانية، فانية جداً، أثوابنا وتسريحاتنا، وشعرنا وأجسادنا نفسها. أرتدي لباس الأغنياء، كما لاحظت بحقّ، ارتديته، لأنّي كنت غنياً، أزيّن شعري مثل أنام الدنيا وعشّاق اللذّة، لأنّي كنت واحداً منهم. »

« والآن، يا سدهارتا، ماذا أنت الآن؟ »

« لا أعلم، فعلمي بالأمر لا يفوق علمك. أنا على الطريق. كنت غنيّاً ولم أعد كذلك. ولا أعلم ماذا سأكون في الغد. »

« هل فقدت ثروتك؟ »

« فقدتها أم هي التي فقدتني. ضاعت مني. فسريعة تدور عجلة التشكّلات، يا غوفيندا! أين البرهمي سدهارتا؟ أين السماني سدهارتا؟ أين الغني سدهارتا؟ سريعاً يتبدّل الفاني، يا غوفيندا، وأنت تعلم. »

تأمّل غوفيندا صديق صباه طويلاً، وفي العين ريبة. ثمّ ودّعه، كما يودّعون النبلاء، وسار في طريقه.

بوجه مبتسم تابعه سدهارتا بنظراته، كان ما يزال يحبّه، هذا المخلص، هذا الواجل. وكيف له، في هذه اللحظة، في هذه الساعة الرائعة بعد نومه العجيب، ومغموراً بـ أوم، ألاّ يحبّ أيا كان وأي شيء! فهذا هو السحر الذي نزل به في نومه بفضل الأوم: الحبّ لكل شيء، الامتلاء بالحبّ الفرح لكلّ شيء يراه. وهذا بالذات -هكذا بدا له الآن- ما أسقمه في الماضي: العجز عن حبّ شيء ما أو أحد ما.

بوجه مبتسم تابع سدهارتا الراهب المنصرف. لقد أعاد النوم إليه القوّة، إلاّ أنّ الجوع قرضه، إذ لم يتناول من الطعام شيئاً في يومين، ومنذ أمد بعيد ولّى الزمن الذي كان يقسي فيه على الجوع. مهموماً،

Arab_Books

لكن مبتسماً أيضاً، تذكّر ذاك الزمن. آنذاك، هكذا تذكّر، تباهى أمام كمالا بأمور ثلاثة، وكان يتقن ثلاثة فنون نبيلة لا تقهر: الصوم، الانتظار، التفكير. هذه كانت ملكه وعماده الثابت، وفيها قوّته وسلطانه؛ تعلّمها في سنيّ الصبا الشاقّة المجتهدة، ثلاثة فنون، ولا شيء سواها. أما الآن فهجرته، ولم يبق له منها أي فن، لا الصوم ولا الانتظار ولا التفكير. كرمى أحقر الأمور وأكثرها فناءً تخلّى عنها، كرمى الثروة، ولذّة الحواس، ورغد العيش! غريب حقاً، ما جرى له. والآن -بدا له- الآن، صار فعلاً واحداً من الأنام الأطفال.

فكّر سدهارتا في وضعه. وصعب عليه التفكير، وهو غير راغب فيه، لكنّه أجبر نفسه.

الآن -فكّر- وكلّ هذه الأمور الفانية فرّت مني وتلاشت، الآن أقف ثانية تحت الشمس، كما وقفتُ تحتها، ذات يوم، وأنا طفل صغير. لا أملك شيئاً، لا أتقن شيئاً، لا أقوى على شيء، وما من شيء تعلّمته. فيا للعجب! الآن، وأنا لم أعد شابّاً، فشاب نصف شعري وتضاءلت قواي، الآن، أبدأ من الأوّل! مرّة ثانية لم يكن في وسعه أن يكبت ابتسامة. أجل، ما أغرب قدره! يقوده نزولاً إلى أسفل، وها هو يمشي في الأرض فارغاً، عارياً، غبياً. إلاّ أنّه لم يكن مكتئباً، بل أحسّ برغبة ملحّة في الضحك، في الضحك من نفسه، ومن هذا العالم الغريب الأبله.

«في درب النزول أنت!» قال في سرّه وهو يضحك، ولما قالها، وقع نظره على النهر، فرأى النهر يجري نزولاً أيضاً، يجري نزولاً أبداً، وهو يغنّي مبتهجاً. فراق له الأمر، وابتسم للنّهر بلطف.

أليس هذا هو النهر الذي أراد أن يغرق فيه يوماً ما، قبل مائة عام، أم أنّه قد رأى ذلك في حلم من الأحلام؟

Arab_Books

غريبة كانت حياتي حقّاً -هكذا فكّر- وطرقاً ملتوية عجيبة سلكت. حين كنت طفلاً، كنت لا أخالط إلاّ الآلهة والقرابين. وفي عمر الصبا، كنت لا أنشغل إلاّ بالزهد، والتفكير، والاستغراق. كنت أعبد السرمدي في اثْمان، بحثاً عن براهمان. وحين صرت شاباً، التحقت بالتائبين، وعشت في الغابة، أجالد الصهد والصقيع والجوع، وأعلّم جسدي أن يموت. ثم أقبلتْ عليّ المعرفة، رائعة، في تعليم البوذا الكبير، فأحسست أنّ العلم بوحدة العالم يسري فيّ، سريان الدم في شراييني. لكنّي رحلت عن البوذا أيضاً وعن العلم الكبير. رحت أتعلّم لذّة الحبّ من كمالا، والتجارة من كمسْوامي. كدّست أموالاً، وضيّعت أموالاً، تعلّمت أن أحبّ معدتي وأتملّق لحواسّي. سنوات طوال قضيتُها في تضييع الروح، والتوبة عن التكفير، ونسيان الوحدة. ألا يعني ذلك أنّي تحوّلت بطيئاً، على طرق ملتوية متعرّجة، من رجل إلى طفل، من مفكّر إلى واحد من الأنام الأطفال؟ ومع ذلك أرى، أنّ هذه الطريق كانت جيدة، وأنّ العصفور في صدري لم يمت البتّة. لكن، يا لها من طريق! فكم من الغباء والرذيلة والضلال، كم من القرف والخيبة والبؤس كان عليّ أن أجتاز، لمجرّد أن أعود طفلاً، فأستطيع أن أبدأ من جديد. لكن، في هذا كلّه صواب أيضاً، فقلبي راض وعيناي تضحكان. كان عليّ أن أختبر اليأس، كان عليّ أن أنحطّ إلى أسخف الأفكار طرّاً: إلى فكرة الانتحار، كي أستطيع أن أعيش النعمة، كي أعود أسمع الأوم، وأنام هنيئاً وأفيق سليماً. كان علي أن أمسي أبله، كي أعود أكتشف فيّ أثمان. كان عليّ أن أقع في الخطيئة كي أحيا من جديد. وإلى أين، يا ترى، ستقودني طريقي بعد؟ فهي عابثة وتتعرّج، بل تدور، ربّما، في

Arab_Books

دائرة. فليكن، لتقدني إلي حيث تشاء فإنّي أريد أن أسلكها!

أحسّ بروعة السرور يتدفّق في صدره. من أين لك -ساءل قلبه- من أين لك هذا الابتهاج؟ أجئت به من هذا النوم الهنيء الطويل، الذي أنعشني أيّما إنعاش؟ أم من لفظ الأوم الذي ردّدته؟ أم أنّك تبتهج لأنّي نجوتُ، وفراري قد تمّ، لأنّي عدتُ حراً أخيراً، ومثل طفل أمشي تحت السماء؟ أوه، ما أروع هذا الفرار، وهذا الانعتاق! ما أنقى الهواء هنا وما أجمله، وكم ألتذّ باستنشاقه! هناك، من حيث فررت، كان الهواء عابقاً بروائح المراهم والتوابل، بالخمر والبذخ والخمول. لكم كرهت عالم الأغنياء هذا، عالم النهمين والمقامرين! وكم كرهت نفسي لمكوثي الطويل في هذا العالم المفزع! كم كرهت ذاتي، وسلبتها، وسمّمتها وعذّبتها، كم جعلتها عجوزاً وخبيثة! لا، لن أعود أتوهّم، كما آثرت أن أفعل، إنّ سدهارتا حكيم! لكني أحسنتُ بما فعلتُه الآن، فهذا يعجبني ويستحقّ منّي مديحاً: انتهيتُ من ذلك الحقد على نفسي، ومن تلك الحياة المجدبة البلهاء. أمدحك، يا سدهارتا، فبعد أعوام طويلة من البلاهة، جئتَ أخيراً بفكرة، فعلتَ شيئاً، سمعتَ العصفور يغرّد في صدرك، فلبّيتَ النداء!

هكذا مدح نفسه والتذّ بها، وأصغى بفضول إلى معدته التي تئنّ من الجوع. في هذه الأزمنة والأيام الأخيرة قد ذاق نصيبه من الألم، نصيبه من البؤس -هكذا أحسّ- تشبّع به فبصقه، اجترعه حتى الثمالة، حتى اليأس والموت. وهكذا الأمور على ما يرام. كان سيبقى بعد طويلاً عند كمسوامي، يكسب المال ويبعثر المال، يسمّن بطنه ويترك نفسه تتضوّر جوعاً، كان سيقيم بعد طويلاً في هذا الجحيم الناعم، الملطّف بكلّ رخو وثير، لو لم يأت عليه تلك اللحظة: لحظة القنط واليأس

Arab_Books

المطلق، تلك اللحظة القصوى التي تدلّى فيها فوق مياه جارية، مستعداً للقضاء على نفسه. فابتهج: لقد أحسّ بهذا اليأس، بهذا القرف الأبعد غوراً، ولم يستسلم له. والعصفور ظلّ حيّاً فيه، والينبوع والصوت الفرح. لذلك ابتهج، لذلك ضحك، لذلك تألّق وجهه تحت الشعر المتّشح بالشيبة.

«من الجيّد -فكّر- أن يذوق المرء بنفسه كلّ ما عليه أن يعلم. كنتُ أعلم أنّ لذة الدنيا والثراء ليسا من خير الأمور، وقد تعلّمت ذلك وأنا طفل. علمت ذلك منذ أمد بعيد، لكنّي لم أختبر ذلك إلاّ الآن. والآن أعلم، أعلم، لا بذاكرتي وحسب، بل بعينيّ وقلبي وأحشائي. فهنيئاً لي أن أعلم!»

طويلاً تفكّر في تحوّله، أنصت إلى العصفور المغرّد ابتهاجاً. ألم يكن هذا العصفور قد مات فيه، ألم يحسّ بموته؟ كلا، لقد مات فيه شيء آخر، شيء قد اشتاق إلى الموت منذ أمد بعيد. وهذا الشيء الآخر، أليس ما أراد أن يميته يوماً في سنوات التوبة الملتهبة؟ أليس أناه، أناه الصغير، الواجل الصلف، الذي تعارك معه سنوات طوالاً، الذي عاد انتصر عليه مرّة تلو أخرى، الذي عاد إليه بعد كلّ ضربة مميتة، ليمنع السرور ويحسّسه بالخوف؟ أليس ما أودى به اليوم أخيراً، هنا في الغابة، بجوار النهر المليح؟ أليس بفضل هذا الموت، يعود الآن طفلاً، مغموراً بالثقة، وخالياً من الخوف، ومفعماً بالسرور؟

الآن استشفّ سدهارتا أيضاً، لماذا ناضل هذا الأنا عبثاً، حين كان برهمياً وتائباً. فما حال دون بلوغه الهدف، كان الإفراط في العلم، الإفراط في الأبيات المقدّسة وقواعد التضحية، الإفراط في تقليم الذات

Arab_Books

والسعي والطموح! فكم كان يومها ناضحاً بالخيلاء، كان دائماً أكثرهم ذكاء واجتهاداً، دائماً في المقدّمة يسبق الأنام بخطوة أو اثنتين، دائماً العالم والروحاني، دائماً الكاهن والحكيم. إلى هذا الكهنوت، إلى هذه الخيلاء، إلى هذه الروحانية انسلّ أناه، وتستّر بها، وفيها استقرّ ونمى، بينما ظنّ نفسه مفلحاً في القضاء عليه بالصوم والتوبة. الآن يرى، يرى أنّ الصوت الخفيّ كان على صواب فيما أوحى إليه: أنّ ما معلّم قادر على خلاصه قط. لذا، كان عليه أن يجول العالم، أن يتيه في متاهة اللذّة والسلطان، والمرأة والمال، أن يصير تاجراً، ولاعب نرد، ومدمناً على الخمر والحشع، إلى أن يموت فيه الكاهن والسماني. لذا كان عليه أن يتحمّل هذه السنوات القبيحة، يتحمّل القرف، والخواء، وسخف حياة مجدبة ضائعة؛ يتحمّلها حتى النهاية، حتى اليأس المرّ، إلى أن يحتضر أيضاً سدهارتا الحشع، وسدهارتا، عاشق اللذّة. إنّه قد مات. ومن النوم استيقظ سدهارتا جديد. وهو أيضاً، سيشيخ، وسيموت ذات يوم. فسدهارتا فان، وفان كلّ تشكّل. لكنّه اليوم طري العود، سدهارتا الجديد، طفل هو ومليء بالغبطة.

فكّر هذه الفكرة، وهو ينصت مبتسماً لأمعائه، ويصغي ممنوناً إلى نحلة تطنّ. مبتهجاً نظر إلى النهر الجاري. لم يرق له نهر من الأنهار يوماً كهذا، ولم يتسنّ له يوماً أن يتلقف صوت المياه المنسابة، ومثالها، على هذا النحو القوي والجميل. بدا له كأنّ النهر يريد أن يطلعه على أمر فريد، على أمر لا يعلمه بعد. أمر مكنون في المجهول. في هذا النهر أراد سدهارتا أن ينتحر غرقاً، وفيه غرق اليوم سدهارتا القديم، المتعب، اليائس. أما سدهارتا الجديد، فأحس بحبّ عميق لهذه المياه الجارية، وقرّر في سرّه ألاّ يغادرها عاجلاً.

Arab_Books

المراكبي

بجوار هذا النهر أريد أن أبقى -فكّر سدهارتا- فهو الذي عبرته يوماً في طريقي إلى الأنام الأطفال. قادني يومها مراكبي لطيف، إليه أريد الذهاب، من كوخه سلكتُ، ذات يوم، الطريق إلى حياة جديدة، شاخت الآن وماتت... فلتبدأ طريقي الجديدة، وحياتي الجديدة، من هناك أيضاً!

بحنان نظر إلى الماء الجاري، إلى الأخضر الشفّاف، إلى خطوط رسمه البلّورية الكثيرة الألغاز. رأى لآلئ باهرة تصعد من الأعماق، وحبيبات هوائية ساكنة سابحة على سطح الماء، المرآة، تنعكس فيها زرقة السماء. بألف عين نظر إليه النهر، بعين خضراء وبيضاء وبلّورية وزرقاء سموية. كم أحبّ هذه المياه، كم فتنته، كم كان لها ممنوناً! في القلب سمع الصوت يتكلّم، الصوت الفتي المستيقظ، يقول: أحبب هذا النهر! ابق بجواره! تعلّم منه! نعم، كان يريد أن يتعلّم منه، ويصغي إليه. من يفهم هذا النهر -بدا له- يفهم أيضاً أشياء أخرى كثيرة، أسراراً كثيرة... الأسرار كلّها.

إلاّ أنه لم ير، من أسرار النهر، في هذا اليوم، سوى واحد، ومس

Arab_Books

هذا السرّ روحه. رأى: يجري هذا الماء ويجري، يجري باستمرار، وهو مع ذلك قائم أبداً، وهو هو عينه دائماً وفي كلّ الأزمنة، إلاّ أنّه جديد أيضاً في كلّ لحظة! أوه، من له أن يفهم هذا ويفقه! فهو لا يفهم ولا يفقه، إنما يحسّ بخلجة تلفحه، بذكرى نائية، وأصوات إلهية.

نهض سدهارتا، وصخْب الجوع في بدنه بات لا يحتمل. مأخوذاً تابع السير، سلك درباً بمحاذاة الضفّة، على عكس التيار، يصغي لهدير الماء، يصغي لدمدمة الجوع في بدنه.

عندما بلغ المعبر، وجد المركب راسياً، وفيه المراكبي نفسه، الذي عبر بالسماني الشابّ النهر، ذات يوم. تعرّفه سدهارتا، وهو الآخر قد شاخ كثيراً.

«هل تعدّيني النهر؟»، سأل.

والمراكبي، المذهول لرؤية رجل نبيل، سيراً على الأقدام وحيداً، أركبه في القارب وانطلق.

«لقد اخترت حياة جميلة -قال الضيف- ما أجمل أن يعيش المرء كلّ يوم بجوار هذه المياه ويمخرها.»

مبتسماً تمايل المجذّف: «إنها جميلة، يا سيدا، إنها كما تقول. لكن، ألا تعتقد أنّ كلّ حياة جميلة، أنّ كلّ عمل جميل؟»

«الأمر هكذا، على الأرجح. لكنّي أحسدك على عملك.»

«آه، ستملّ منه عاجلاً. فهو لا يليق بمن يرتدي ثياباً أنيقة.»

ضحك سدهارتا. «سبق أن نظر إليّ أحدهم اليوم متفحّصاً ثيابي، بعين الارتياب. ألا تريد، يا مراكبيا، أن تتقبّل منّي هذه الثياب التي صرت أضجر منها؟ وأريدك أن تعلَم أن لا نقود معي لأدفع لك أجرة العبور.»

Arab_Books

«يمازحني السيد»، قال المراكبي ضاحكاً.

«لا أمزح، يا صديقي. اسمع، ذات مرّة عدّيتني النهر في مركبك، لوجه الله. فكمّل معروفك اليوم واقبل ثيابي أجراً.»

«وهل يريد السيد مواصلة الرحلة بلا ثياب؟»

«آه لو تعلم... أمنيتي هي ألا أواصل الرحلة. أتمنّى، يا مراكبيا، لو تعطيني ، وزرة قديمة، وتبقيني عندك معاوناً، أو تلميذاً بالأحرى، فعلي أن أتعلم بدءاً الملاحة.»

أطال المراكبي النظر إلى الغريب، كأنّه يبحث عن شيء ما.

«الآن أعرفك -قال أخيراً- ذات يوم نمتَ في كوخي، كان ذلك منذ زمن بعيد، منذ أكثر من عشرين سنة، أظنّ، عدّيتك النهر وافترقنا مثل صديقين. ألم تكن من السمانيين؟ لكنّي لا أذكر اسمك.»

«اسمي سدْهارتا، وكنتُ سمانياً حين رأيتَني آخر مرة.»

«أهلاً بك يا سدهارتا، اسمي فزوديفا، آمل أن تكون اليوم أيضاً ضيفي وتنام في كوخي وتقصّ عليّ، من أين أتيت، ولماذا صرت تضجر من ثيابك الجميلة.»

بلغا وسط النهر، وفزوديفا بدأ يجذّف تجذيفاً أقوى ليغالب التيّار. هادئاً أدّى عمله، بذراعين قويتين، موجّهاً نظره إلى مقدّمة المركب. جلس سدهارتا يراقبه، فتذكّر ذات ساعة، في ذلك النهار الذي كان آخر عهده السماني، قد دبّ في قلبه الحبّ لهذا الرجل. بامتنان قبل دعوة فزوديفا. وعندما بلغا الشاطئ، عاونه في ربط المركب بالأوتاد، ثمّ دعاه المراكبي لدخول كوخه، فقدّم له الخبز والماء، وسدهارتا أكل بشهية، وأكل بلذّة أيضاً من حبات المانجو التي قدّمها له فزوديفا.

Arab_Books

بعد ذلك جلسا على جذع شجرة بجوار الضفّة، والشمس بدأت تميل إلى الغروب، فروى سدهارتا للمراكبي نشأته وحياته، كما قد رآها أمامه اليوم، في تلك الساعة من اليأس. طالت روايته إلى أن تأخّر الليل.

أصغى فزوديفا باهتمام كبير، أو عب مصغياً كلّ شيء في ذاته، الأصل والطفولة، وكلّ ما تبدّى له من بحث وتعلّم، ومن سرّاء وضرّاء. فالمراكبي كان كثير الفضائل، ومن أفضلها أنّه أجاد الإصغاء، كما لا تجيده إلاّ قلّة من الأنام. من دون أن يتلفّظ فزوديفا بكلمة، أحسّ الراوي بأنّه يولج كلّ كلمة من كلماته في نفسه، هادئاً، رحب الصدر، منتظراً، وبأنّه لا يضيّع منها أي لفظ، ولا يترقّب أي لفظ نافد الصبر، ولا يزين أيا منها مادحاً أو معيّباً، بل بأنّه مصغٍ، وحسب. أحسّ سدهارتا، كم هو سعيد، بالبوح لمنصت من هذا القبيل، بإغراق حياته الخاصة، وما فيها من بحث وألم، في قلب هذا المنصت.

وقبلما يختتم سدهارتا روايته، فتكلّم على الشجرة بجوار النهر، على يأسه العميق، والأوم المقدّس، والحبّ القوي للنهر، الذي خالجه بعد النوم، أرهف المراكبي السمع بانتباه مضاعف، متفانياً، مغمض العينين.

وعندما صمت سدهارتا وبعد أن طال الصمت ردحاً، قال فزوديفا: «الأمر كما اعتقدتُ. النهر كلّمك. صار صديقك أيضاً، ويحدّثك. هذا جيد، جيد جداً. ابق عندي، يا صديقي سدهارتا. كانت لي ذات يوم زوجة، وفراشها لصق فراشي، لكنّها توفّيت منذ زمن بعيد، وطويلاً عشت لوحدي. عش أنت معي الآن، فالمكان والطعام يكفيان لاثنين.»

«أشكرك -قال سدهارتا- أشكرك وأقبل. وأشكرك أيضاً، يا فزوديفا، لأنّك أحسنت الإصغاء! قليلون يتقنون الإصغاء، ولم ألتق بأحد، يتقنه مثلك. سأتعلّم هذا منك أيضاً.»

Arab_Books

«ستتعلّمه -قال فزوديفا- لكن، ليس منّي، النهر علّمني الإصغاء، ومنه ستتعلّمه أنت أيضاً. إنه يعرف كلّ شيء، النهرُ، وكلّ شيء يمكن تعلّمه منه. انظر، لقد تعلّمتُ منه أنّ من الحكمة أن يسعى المرء إلى أسفل، أن يغوص ويتلمّس العمق. سدهارتا الغني النبيل سيصير مجذّفاً، سدهارتا البرهمي اللبيب سيصير مراكبياً: هذا ما قاله لك النهر أيضاً. وستتعلّم منه الشيء الآخر كذلك.»

قال سدهارتا بعد لحظات من الصمت طالت: «اي شيء آخر، يا فزوديفا؟»

نهض فزوديفا وقال: «تأخّر الوقت. دعنا نروح ننام. لا أستطيع أن أقول لك الشيء الآخر، أيها الصديق. سوف تتعلّمه، أو ربّما، تعرفه. أنا لست عالماً من العلماء، لا أحسن الكلام، ولا أحسن التفكير. أعرف فقط أن أصغي وأكون تقيّاً، وما تعلّمت غير ذلك. لو استطعتُ أن أعبّر عنه وأعلّمه، لكنتُ حكيماً، على الأرجح، لكنّي مجرّد مراكبي، ومهمّتي أن أعدّي الأنام هذا النهر. لقد نقلت الكثيرين، الآلاف، ولهم جميعاً لم يكن نهري سوى عائق في رحلاتهم. يسافرون من أجل المال والأعمال، إلى الأعراس والحجّ، والنهر يعرقلهم، والمراكبي حاضر ليعدّيهم الحاجز سريعاً. لكن بعضهم، قليلين من بين الآلاف، أربعة أو خمسة كفّوا عن عدّ النهر عائقاً لهم. إنّهم سمعوا صوته وأصغوا إليه، وصار النهر لهم مقدّساً، كما حدث معي. دعنا نروح الآن ونرتاح، يا سدهارتا.»

مكث سدهارتا لدى المراكبي وتعلّم الاعتناء بالمركب، وحين خلا المعبر ممن يطلب العبور، كان يعمل مع فزوديفا في حقل الأرز، ويجمع الحطب، ويقطف الثمار من أشجار الموز الهندي، البيزانغ. تعلّم أن يصنع

Arab_Books

المجاذيف ويصلح المركب ويجدل السلال، وابتهج بكلّ ما تعلّمه، وانصرمت الأيام والأشهر سريعة. لكن أكثر مما استطاع فزوديفا أن يعلّمه، علّمه النهر. منه تعلّم بلا انقطاع. وأكثر من أي شيء آخر، تعلّم منه الإنصات، الإصغاء بقلب هادئ، بنفس رحبة منتظرة، دونما شغف، ولا رجاء، ولا حكم، ولا رأي.

عاش إلى جانب فزوديفا أنيساً، وأحياناً تبادلا الكلام، كلمات قليلة، محضّرة بتأنّ. لم يكن فزوديفا من هواة الكلمات، وقلّما نجح سدهارتا في حثّه على الكلام.

«أتعلّمتَ -سأله مرّة- أتعلّمت أيضاً من النهر ذلك الأمر المخفي: أن لا وجود للزمان؟»

علت وجه فزوديفا ابتسامة بهية.

قال: «نعم سدهارتا، أليس ما تعنيه: أنّ النهر في كلّ مكان في الوقت نفسه، في المنبع والمصبّ، في المسقط والمعبر والشلال، في البحر والجبل، أينما كان في الوقت نفسه؟ وأن لا وجود، بالنسبة إليه، سوى للحاضر، ولا لظلّ المستقبل؟»

«هذا هو -قال سدهارتا- ولما تعلّمتُ ذلك، نظرت إلى حياتي، فرأيت أنّها نهر أيضاً، وأنّ ما يفصل الصبي سدهارتا عن سدهارتا الرجل والكهل ليس شيئاً حقيقياً، بل ظلال وحسب. وكذلك لم تكن ولادات سدهارتا السابقة من الماضي، ولا موته ورجوعه إلى براهما من المستقبل. لا شيء كان، ولا شيء سيكون؛ كلّ شيء كائن، ولكلّ شيء ماهيته وحاضره.»

تكلّم سدهارتا بانتشاء، عميقاً أسعده هذا التنوّر. أوه، أليس كلّ

Arab_Books

تألم، أليس كل تعذّب وتخوّف زماناً، ألا يزول كلّ ما في العالم من ثقيل وعدائي ويتلاشى، ما إن استطاع المرء أن يتعدّى الزمان، ما إن استطاع أن ينفي الزمان بتفكيره؟ بانتشاء تكلّم. أمّا فزوديفا فابتسم له مشرقاً، وأومأ له بالإيجاب، أومأ له صامتاً، فلمس كتف سدهارتا، وعاد انصرف إلى عمله.

ومرّة أخرى، حين فاض النهر في موسم الأمطار وتعاظم هديره، قال سدهارتا: «أليس صحيحاً، أيها الصديق، أنّ للنهر أصواتاً كثيرة، أصواتاً كثيرة جداً؟ أليس له صوت ملك، ومحارب، وثور، وطائر ليلي، وامرأة تولّد، ورجل يئن، وألف صوت وصوت؟»

«إنه كذلك -وافق فزوديفا- أصوات المخلوقات كلّها في صوته.»

«وهل تعرف -استطرد سدهارتا- أي كلمة يقولها، عندما تفلح في التقاف العشرة آلاف صوت في الوقت نفسه؟»

سعيداً ابتسم وجه فزوديفا، وهو ينحني على سدهارتا ليهمس الـ أوم المقدّس في أذنه. وهذا ما سمعه سدهارتا أيضاً.

من مرّة إلى أخرى، ازدادت ابتسامته شبهاً بابتسامة المراكبي، كانت تشرق الإشراق نفسه، وتتألّق مثلها سعادة، وتتلألأ مثلها من ألف ضغن صغير، ابتسامة الطفل والكهل على السواء. ظنّ الكثيرون من المسافرين، إذ رأوا المراكبيين، أنّهما أخوان، غالباً ما جلسا مساء بجوار الضفّة على جذع الشجرة، يصمتان ويصغيان إلى الماء، الذي لم يكن عندهما مجرّد ماء، بل صوت الحياة، صوت الكائن، الصائر السرمدي. وحدث أحياناً، لحظة إصغائهما إلى صوت الماء، أنّ كليهما فكّرا في الأشياء نفسها: في حديث جرى قبل يومين، مسافر من المسافرين

Arab_Books

شغلهما وجهه وقدره، في الموت وفي الطفولة -وأنّ كليهما نظرا إلى الآخر في اللحظة نفسها، لحظة بوح النهر بشيء جميل، وهما يفكّران في الأمر نفسه تماماً ويغتبطان بالجواب نفسه عن سؤال واحد شغل كليهما.

كان للمعبر والمراكبيين سحراً ما، شعر به ربّ مسافر. مرّات حدث أنّ أحد المسافرين بدأ يروي قصّة حياته، بعدما نظر إلى وجه واحد منهما، بدأ يروي الألم، ويعترف بشرّ، ويطلب العزاء والنصيحة. ومرّات أخرى حدث، أن أحدهم طلب السماح بقضاء الليلة معهما، ليستمع إلى النهر. ومراراً أمّ المكان جمع من أهل الفضول، الذين سمعوا خبراً يقول إن حكيمين أو ساحرين أو قدّيسين يعيشان على هذا المعبر. وطرح أهل الفضول أسئلة كثيرة، لكنّهم ما فازوا بجواب، وما وجدوا سحرة ولا حكماء، بل رجلين كهلين لطيفين، بدا عليهما بعض البكم والبلادة وغرابة الأطوار. فضحك أهل الفضول وتندّروا على الدهماء التي تشيع مثل هذه الإشاعات الفارغة ببلاهة وسذاجة.

تصرّمت الأعوام، وما من أحد كان يعدّها. فجاء ذات يوم جمع من الرهبان، من أتباع غوتاما، البوذا، وطلبوا عبور النهر. ومنهم علم المراكبيان أنّهم في عجلة للرجوع إلى معلّمهم الكبير، لأنّ الخبر قد انتشر أنّ المتعالي مريض جداً وسيموت قريباً موته البشري الأخير ليدخل الخلاص. وبعد ذلك بأمد قصير أقبل جمع ثان من الرهبان الحجّاج، تلاه جمع آخر. ولا أحد من الرهبان ولا من المسافرين والرحالة الآخرين، تكلّم على شيء آخر غير غوتاما وموته القريب. وكما يتدافع الأنام، من كلّ ناحية وصوب، لحملة حربية أو لتتويج ملك من الملوك، فيحتشدون زحاماً شبيهاً بأسراب النمل، هكذا تدفّقوا، كما لو كانوا تحت تأثير سحر، إلى

Arab_Books

المكان، حيث انتظر البوذا الكبير موته، حيث سيحدث الأمر العظيم ويدخل المكتمل الكبير لعصر وعهد ربوع الخلود.

كثيراً ما كان سدهارتا يذكر الحكيم المحتضر، في ذلك الوقت. المعلّم الكبير، الذي بلغ صوته شعوباً بأكملها وأيقظ مئات الآلاف، والذي قد استمع إليه، هو أيضاً، ذات ساعة، وتأمّل محيّاه المقدّس أيضاً بخشوع. بعطف ذكره، رأى أمام عينيه طريق اكتماله، وتذكّر مبتسماً الكلمات التي قالها له، للمتعالي، يومها وهو شاب. كلمات فيها، على ما بدا له، شيء من الصلف والادعاء الطفولي، فتذكّرها مبتسماً. منذ ردح عرف أنّه لم يعد مفصولاً عن غوتاما، رغم أنّه لم يستطع أن يعتنق تعليمه. لا، ما من تعليم يستطيع أن يعتنقه من يبحث حقّاً، من يريد حقّاً أن يجد شيئاً. أما من وجد، فيمكن له أن يستحسن كلّ تعليم، على الإطلاق، وكلّ طريق وكلّ هدف، إذ لم يعد من شيء يفصله عن جمع الآلاف الآخرين الذين يحيَون في السرمدي، الذين يستنشقون الإلهي.

في يوم من هذه الأيام التي حجّ فيها الكثيرون إلى البوذا المحتضر، حجّت إليه أيضاً كمالا، التي كانت ذات يوم أجمل السراري. منذ أمد بعيد قد انسحبت من حياتها السابقة. وهبت حديقتها إلى رهبان غوتاما، والتجأت إلى التعليم وصارت من صديقات الحجّاج ومحسناتهم. برفقة الفتى سدهارتا، ابنها، انطلقت حال بلوغها الخبر عن موت غوتاما القريب. انطلقت راجلة في ثوب بسيط. مع ابنها الصغير سلكت درباً بجوار النهر؛ لكن، سرعان ما تعب الصبي، طلب الرجوع إلى البيت، طلب استراحة، طلب طعاماً، حرد وتباكى. كان على كمالا

Arab_Books

أن تريحه من السير مراراً، وهو اعتاد على فرض إرادته عليها. كان عليها أن تطعمه، وتعزيه، وتنهره. وهو لا يفهم، لماذا عليه أن يقوم مع أمه بهذا الحجّ الشاقّ والحزين، إلى مكان مجهول، إلى رجل غريب، قدّيس هو وعلى آخر رمق. فليمتْ، واي دخل للصبي في الأمر؟

اقترب موكب الحجّاج من معبر فزوديفا، حين ألحّ سدهارتا الصغير مرّة أخرى على أمّه بالتوقّف. كانت كمالا نفسها مرهقة، فقعدت على الأرض، بينما كان الصبي يقضم موزة، وأغمضت عينيها قليلاً لترتاح. لكن، فجأة، ندّت عنها صرخة ألم مدوّية. فالتفت إليها الصبي مذعوراً ورأى وجهها شاحباً من الفزع، وتحت ثوبها انسلّت حيّة سوداء صغيرة، قد لدغت كمالا.

في عجلة هرعا إلى الطريق ليلحقا بالأنام، فوصلا إلى جوار المعبر. هناك انهارت كمالا ولم تقو على مواصلة السير. فبدأ الصبي يولول يائساً وانكبّ على أمّه، بين ولولة وأخرى، يقبّلها ويعانقها، فانضمّت إلى صرخاته العالية مستغيثة، حتى بلغت الأصوات أذن فزوديفا الذي كان قرب المعبر. بعجلة جاء، رفع المرأة وحملها إلى المركب، يلحق به الصبي. فسرعان ما وصلوا جميعاً إلى الكوخ، حيث كان سدهارتا يهمّ بإشعال النار في الموقد. التفت ورأى، أوّل الأمر، وجه الصبي، الذي ذكره على نحو عجيب، بأمور لفّها النسيان. ثمّ رأى كمالا، وعرفها في الحال، رغم أنّها كانت بين أحضان المراكبي فاقدة الوعي، فأدرك للّحظة أنّ الوجه الذي لفته وأثّر فيه كثيراً، هو وجه ابنه، فتحرّك القلب في صدره.

غسلا جرح كمالا، مع أنّه قد اسودّ والبدن تورّم، وأسقياها شراباً مقوياً. فعاد إليها الوعي. كانت مستلقية على فراش سدهارتا في

Arab_Books

الكوخ، ينحني عليها سدهارتا، الذي أحبّها ذاته يوم الحبّ كلّه. حسبت نفسها في حلم، ومبتسمة نظرت إلى وجه إلفها. ببطء، فقط، أدركت وضعها، تذكّرت اللدغة، ونادت خائفة الصبي.

«هو معك، لا تقلقي»، قال سدهارتا.

وكمالا نظرت إلى عينيه. فتكلّمت بلسان ثقيل، يشلّه السمّ: «شخت، يا عزيزي -قالت- وشاب شعرك. لكنّك تشبه السماني الفتي الذي جاء، يوماً، من دون ثياب وبقدمين مغبّرتين، إلى حديقتي. أنت به أقرب شبها، مما كنتَ تشبهه يوم رحلتَ عنّي وعن كمسْوامي. في العينين تشبهه، سدهارتا، أوه، لقد عجزتُ أيضاً، عجزتُ... فهل عرفتَني؟»

ابتسم سدهارتا: «في الحال عرفتُك، كمالا، يا عزيزة.»

أشارت كمالا إلى الصبي وقالت: «وهل عرفتَه أيضاً؟ هو ابنك.»

ثمّ زاغت عيناها وغمضتا. بدأ الصبي يبكي. فأخذه سدهارتا على ركبتيه، تركه يبكي وداعب شعره. وإذ رأى أمامه الوجه الطفولي، خطرت على باله صلاة براهمانية، تعلّمها يوم كان بنفسه صبياً صغيراً. بطيئاً، وبنبرة غنائية، بدأ ينشدها، ومن الماضي والطفولة انسابت إليه الكلمات. بفعل تجويده هدأ الصبي، أجهش فقط، بين حين وآخر، وغفا. وضعه سدهارتا على فراش فزوديفا. كان فزوديفا أمام الموقد يطبخ الأرز. ألمح إليه سدهارتا بنظرة، ردّ عليها مبتسماً.

«ستموت»، قال سدهارتا باسماً.

أومأ له فيزوديفا، وعلى وجهه الأنيس سرى وهج من نار الموقد.

مرّة ثانية استعادت كمالا الوعي. شوّه الوجع ملامحها، وسدهارتا قرأ الألم على فمها، وعلى وجنتيها الشاحبتين. هادئاً قرأه، منتبهاً،

Arab_Books

منتظراً، مستغرقا في ألمها... أحسّت به كمالا، فتلمّس نظرها عينيه.

قالت محدّقة إليه: «الآن أرى عينيك تغيّرتا أيضاً. صارتا مختلفتين تماماً. كيف أستدلّ إليك بعد وأعرف أنّك سدهارتا؟ أنت هو، ولستَ هو.»

ظلّ سدهارتا صامتاً، بهدوء نظرت عيناه إلى عينيها،

«هل بلغته؟ -سألت- هل وجدت السلام؟»

ابتسم ووضع يده في يدها.

«أرى ذلك -قالت- أرى. سوف أجد السلام أيضاً.»

«وجدته»، قال سدهارتا هامساً.

نظرت كمالا إلى عينيه نظرة غائبة. فكّرت أنّها كانت تريد أن تحجّ إلى غوتاما، لتبصر وجه إنسان مكتمَل، لتستنشق سلامه. والآن وجدته، هو، بدل غوتاما، وهي راضية، راضية كلّياً، فرؤيته تغنيها عن رؤية ذاك الآخر. أرادت أن تخبره، لكنّ اللسان ما عاد يطيع الإرادة. صامتة نظرت إليه، وهو رأى، في عينيها، الحياة تنطفئ. وحين ملأ الألم الأخير عينها فخبت، وحين سرت الرعشة الأخيرة في أطرافها، أغمضت أنامله جفنيها.

طويلاً جلس ينظر إلى وجهها الهامد. طويلاً تأمّل فمها، فمها العجوز الكليل ذا الشفتين المتضائلتين، وتذكّر أنّه شبّه هذا الفم، يوماً، في ربيع عمره، بحبّة تين نضرة مشقوقة. طويلاً جلس يقرأ في الوجه الشاحب، في الغضون الكليلة. امتلأ بالمنظر، رأى وجهه هامداً مثل وجهها، أبيض مثله، خابياً مثله، ورأى في الوقت نفسه وجهه ووجهها في زمن الشباب، بالشفاه الحمراء والعيون الملتهبة، والشعور بالحاضر

Arab_Books

والتزامن، الشعور بالخلود يغمره تماماً.انتابه، في هذه الساعة، إحساس عميق، إحساس فاق عمقه كلّ ما أحسّ به يوماً، بلا فناء أي حياة، بخلود كلّ لحظة.

حين نهض، كان فزوديفا قد أعدّ له الأرز. غير أنّ سدهارتا لم يأكل. في حظيرة العنزة حضّر الكهلان من التبن فراشاً، وفزوديفا اضطجع عليه ونام. أما سدهارتا فخرج، جلس الليلة أمام الكوخ مصغياً إلى النهر، مطوّقاً بسيول وديعة من الماضي، محاطاً ومأخوذاً بكلّ أزمنة عمره في الوقت نفسه. غير أنه كان ينهض بين حين وحين، يقترب من باب الكوخ وينصت ليطمئن على الصبي النائم.

باكراً في الصباح، وقبل أن تظلّ الشمس، جاء فزوديفا من الحظيرة إلى صديقه.

«لم تنم»، قال.

«لا، يا فزوديفا. جلستُ هنا أصغي إلى النهر. لقد قال لي أشياء كثيرة، وملأني عميقاً بالفكرة الشافية، بفكرة الوحدة.»

«إنك تتألّم، يا سدهارتا، لكنّي أرى أن قلبك ليس حزيناً.»

«لا، يا عزيزي، كيف لي أن أحزن؟ أنا الذي كنت غنياً وسعيداً صرت أكثر غنى وسعادة. ابني وُهب لي.»

«أرحّب أيضاً بابنك. لكن، دعنا نبدأ الآن بالعمل، لدينا أشغال كثيرة، يا سدهارتا. ماتت كمالا على الفراش نفسه الذي ماتت عليه امرأتي. دعنا نرفع محرقة كمالا على التلّة عينها التي رفعتُ عليها يوماً محرقة امرأتي.»

وبينما كان الفتى ما يزال نائماً، شيّدا المحرقة.

Arab_Books

Arab_Books

الابن

خفراً وباكياً حضر الصبي مأتم أمّه، متجهّماً ومنغلقاً استمع إلى سدهارتا الذي حضنه حضن الأب ورحّب به في كوخ فزوديفا. شاحباً جلس أياماً على تلّة الميّتة، يرفض الأكل، يغلق قلبه، يتعامى، يتمنّع، يعاند القدر.

هاوده سدهارتا، وتركه على حاله، محترماً حزنه. فهم سدهارتا أن ابنه لا يعرفه ولا يستطيع أن يحبّه كما يحبّ الابن أباه. ببطء رأى وأدرك أيضاً أن الابن، البالغ من العمر إحدى عشر سنة، صبي مدلّل، معتاد على وداعة الأمّ، وأنّه نشأ على عادات أهل الغنى، على أطعمة لذيذة، وسرير وثير، وإعطاء الأوامر لحاشية من الخدم، فهم سدهارتا أنّ الحزين المدلّل لن يرضى عن طيب خاطر، بين ليلة وضحاها، بالغربة والفقر. فلم يلجأ معه إلى قسوة الإكراه، بل أدّى له غير خدمة وتوخّى دائماً أن يختار له أفضل لقمة متوفّرة. كان على أمل أن يستميله رويداً رويداً، بالصبر والعطف.

غنيا وسعيداً ظنه نفسه، حين جاء الصبي إليه. إلاّ أنّ الزمن مضى، والصبي على حاله، متجهّماً، غريباً عنه. كان يعرض له قلباً أبياً عنيداً،

Arab_Books

ويرفض أداء أي عمل، ويأبى أن يبدي للكهلين إكباراً، ويعيث في أشجار فزوديفا سارقاً ثمارها... فتيقّن سدهارتا بأنّ الابن لم يجلب له السعادة والسلام، بل أتى عليه بالألم والكدر. لكنّه أحبّه وآثر ألم الحبّ وهمّه على سعادة وسرور من دون الصبي.

منذ أن أقام سدهارتا الفتي في الكوخ، تقاسم الكهلان العمل. تولّى فزوديفا من جديد أعمال المركب والمعبر، وتولّى سدهارتا، ليكون قرب ابنه، أعمال الكوخ والحقل.

زمناً طويلاً، شهوراً طويلة، انتظر سدهارتا، عسى أن يفهمه الابن، ويقبل حبّه، ويبادله الحبّ حباً. شهوراً طويلة انتظر فزوديفا، متفرّجاً، انتظر وصمت. وذات يوم، حين عذّب سدهارتا، الصبي، أباه ثانية بالعناد والعقوق، وكسّر له صحنين من الأرز، اختلى فزوديفا بصديقه مساء، وكلّمه.

«عذراً -قال- إنّي أكلّمك عن قلب عطوف. أرى أنك تتعذّب، أرى أنّك مهموم. ابنك، عزيزي، يكدّرك، ويكدّرني أيضاً. على حياة أخرى، على عشّ آخر، اعتاد الطائر الفتيّ. لم يهرب مثلك من الغنى والمدينة قرفاً وسأماً، بل ترك هذا كلّه رغم إرادته. سألتُ النهر، أيها الصديق، سألتُه مرّات كثيرة، لكنّ النهر يضحك، يضحك منّي، يضحك منّي ومنك، يتقهقه من بلاهتنا. الماء يريد الماء، الشباب يريد الشباب، ابنك ليس في المكان الذي يحيا فيه سعيداً. اسأل النهر، واصغ أيضاً لما يقول!»

مهموماً حدّق سدهارتا في وجهه الأنيس المليء بغضون، تسكن فيها بهجة لها دوام.

Arab_Books

«أتظنّني قادراً على فراقه؟ -سأل خافتاً ، مخجولاً -أمهلني أمداً، عزيزي! فإنّي أجاهد من أجله، أحاول كسب قلبه. بالحبّ والصبر العطوف أريد أن أستميله. يوماً ما سيكلّمه النهر أيضاً، فهو أيضاً مصطفى.»

ازدهرت ابتسامة فزوديفا دافئة: «أجل، هو أيضاً مصطفى، هو أيضاً جزء من الحياة السرمدية. لكن، ما أدرانا، أنا وإياك، بالطريق والأفعال والآلام التي قُدّرت له؟ لن تكون آلامه خفيفة وله هذا القلب الأبيّ القاسي. أمثاله من الناس يتألّمون ويضلّون كثيراً، ويرتكبون الكثير من الآثام والخطايا. قل لي، عزيزي: ألا تربّي ابنك؟ ألا تجبره؟ ألا تضربه؟ ألا تعاقبه؟»

«لا، فزوديفا، أمتنع عن كلّ هذه الأمور.»

«عرفت ذلك. لا تُكرهه، لا تضربه، لا تأمره، لأنّك تعلم أنّ الليّن أقوى من القاسي، والماء أقوى من الصخر، والحبّ أقوى من العنف. عال، إنّي أهنّئك. لكن، ألا تخطئ في ظنّك أنّك لا تجبره على شيء ولا تعاقبه؟ ألا تقيّده وتكبّله بحبّك؟ ألا تخجله كلّ يوم وتزيد الطين بلّة برفقك وصبرك؟ ألا تجبر الصبي المدلّل المتعجرف أن يعيش في كوخ مع اثنين من آكلي الموز، يحسبان الأرز وليمة، ولا يمكن أن تتطابق أفكاره مع أفكارهما، ولا ينبض قلبه نبض قلبيهما الكهلين الساكنين؟ أليس هذا كلّه إكراهاً له وعقاباً؟»

مصدوماً نظر سدهارتا إلى الأرض. خافتاً سأل: «وما العمل برأيك؟»

وفزوديفا قال: «خذه إلى المدينة، خذه إلى بيت أمّه، فعلى الأرجح مازال فيه بعض الخدم، وإن لم تجد فيه خدماً، فخذه إلى معلّم، لا من

Arab_Books

أجل التعليم، بل ليكون بين صبيان وبنات من جيله ويعيش في العالم الذي ينتمي إليه. ألم تفكّر في هذا يوماً؟»

«إنّك ترى ما في قلبي -قال سدهارتا حزيناً- مراراً فكّرت في ذلك. لكن، قل لي، كيف لي أن أسرّحه إلى هذا العالم، وليس له قلب وديع؟ ألن يتمادى، ألن يتيه في متاهة اللذّة والسلطان، ألن يكرّر أغلاط أبيه كلّها، ألن يضيع نهائياً في السانسرا؟»

ساطعة أشرقت ابتسامة المراكبي؛ لمس ذراع سدهارتا برقّة وقال: «استشر النهر بالموضوع، يا صديقي! واسمع كيف يضحك منه! أتعتقد فعلاً أنّك ارتكبت حماقاتك لتوفّرها على ابنك؟ أيسعك أصلاً، أن تحمي ابنك من السانسرا؟ قل لي كيف!؟ بالتعليم، بالصلاة، بالوعظ؟ أيها العزيز، أنسيت تلك القصّة كليّاً، تلك القصّة المفيدة حول ابن البرهمي سدهارتا، التي رويتَها لي مرّة، هنا، في هذا المكان؟ ومن كان يحمي سدهارتا السماني من السانسرا، من الخطيئة والجشع والحمق؟ أحصّنه تبتّل الأب ووعظ المعلّم، وبحثه وعلمه الخاص؟ أي أب وأي معلّم استطاع أن يحميه من أن يعيش حياته، من أن يتلوّث بالحياة، ويرتكب الذنوب، ويجترع الكأس المرّ، ويجد طريقه بنفسه؟ أم تظنّ، يا عزيزي، أنّ أحداً معفى من سلك هذه الطريق؟ بنيّك، ربما لأنّك تحبّه، وتحبّ أن تجنّبه الألم والوجع والخيبة؟ لكن، لو مت عشر مرّات فداء له، لما استطعت أن تحمل عنه أخفّ حمل ممّا عليه مقدور!»

لم يتكلّم فزوديفا يوماً بمثل هذه الإفاضة. بلطف شكره سدهارتا، ذهب إلى الكوخ، وصارع النوم طويلاً. لم يبح له فزوديفا بأي شيء، لم يكن يتفكّر فيه بنفسه، ولم يكن يعلمه علم اليقين. لكنّ العلم هذا كان

Arab_Books

علماً مع وقف التنفيذ؛ فأقوى من العلم كان حبّه للصبي، أقوى منه حنانه، وخوفه من فقدانه. أهام قلبه بشيء ما هذا الهيام يوماً؟ أتفانى في حبّ بائس أعمى، يعذّبه ويسعده على السواء، لأي من الأنام يوماً؟

لم يقو سدهارتا على اتباع نصيحة الصديق، لم يقو على التخلّي عن الابن. سمح للصبي أن يتسلّط عليه ويمتهنه. ظلّ ينتظر ويصمت، ويبدأ كلّ يوم صراع المودّة الصامت، وحرب الصبر التي لا تنمّ عنها نأمة. صمت وانتظر فزوديفا أيضاً، متعاطفاً، متفهّماً، طويل الأناة. فكلاهما في الصبر معلّمان.

ذات مرّة، إذ ذكره وجه الصبي كثيراً بكمالا، خطرت على بال سدهارتا عبارة، قالتها كمالا، منذ آماد، في أيام الشباب: «لا تستطيع أن تحبّ»، قالت له يومها، وهو وافقها الرأي، مشبّهاً نفسه بنجم، والأنام الأطفال بأوراق متساقطة. ومع ذلك، أحسّ يومها بقصد اللوم في تلك العبارة. بالفعل، إنّه لم يستطع يوماً، أن يهب نفسه لإنسان ويتفانى فيه كليّاً، أن ينسى نفسه ويرتكب، كرمى الآخر، حماقات الحبّ؛ لم يستطع ذلك، ولو مرة... وتلك هي، على ما بدا له يومها، الميزة الكبيرة التي يمتاز بها على الأنام الأطفال. لكن الآن، ومنذ أن حضر الابن، الآن صار هو أيضاً، هو السدهارتا، واحداً من الأطفال، صار منهم وفيهم، متألّماً من أجل إنسان آخر، محبّاً إنساناً آخر، هائماً في الحبّ، تائماً بفعل الحبّ إلى حدّ البلاهة. الآن يحسّ هو أيضاً، مرّة متأخّرة في حياته، بهذا الهوى الجارف، بأكثر الأهواء قوة وغرابة، ويتألّم بسببه، يتألّم أيما تألّم، وهو مع ذلك، سعيد ومتجدّد وأغنى بشيء ما.

كان يشعر تماماً بأنّ هذا الحبّ، هذا الحبّ الأعمى لابنه، هو من

Arab_Books

الأهواء والسانْسارا، وبأنّه شيء إنساني جداً، نبع كدر، ماء داكن عميق، إلاّ أنّه أحسّ في الوقت نفسه بأنّه ليس من دون قيمة، بأنّه ضروري، ونابع من صميم ذاته. فهذه اللذّة مكتوبةٌ وجزاؤها أيضاً. ومكابدة هذه الآلام مكتوبة، وارتكاب هذه الحماقات أيضاً.

وتركه الابن يرتكب حماقاته، تركه يسعى ويتذلّل أمام نزواته كلّ يوم. ليس لهذا الأب أي شيء يأسره، ليس له أي شيء يخافه. رجل طيّب هو، هذا الأب، رجل طيّب، رحيم، وديع، رجل تقي، ربّما، أو قدّيس -كلّها صفات لا تستهوي الصبي ولا تستميله. يضجره هذا الأب الذي سجنه في كوخه الحقير، يضجره... وأن يجزيه على كلّ وقاحة بالابتسامة، على كلّ إهانة باللطف، على كلّ خباثة بالرفق، فهذه أبغض حيلة من حيل هذا المرائي الهرم. فكم يفضّل الصبي على ذلك التهديد والتنكيل.

وجاء يوم، تفجّر فيه ما يضمره سدهارتا الفتي، فعارض أباه صراحة. كان الأخير قد كلّفه بعمل: طلب إليه أن يجمع الحطب. لكنّ الصبي لم يغادر الكوخ. ظلّ واقفاً، حرداً ومغتاظاً، يدقّ الأرض بقدميه، يشدّ قبضته، ويصيح، بسورة، الحقد والاحتقار العنيفة في وجه أبيه. «رح اجلب حطبك بنفسك! -صرخ مزبداً- لست خادمك. وأعرف أنك لا تضربني، لا تجرؤ على ذلك، أعرف أنّك تريد أن تمعن في معاقبتي وتصغيري بحلمك وتقواك! تريد أن أصير مثلك، تقياً، حليماً، حكيماً! لكن، اسمعني جيداً، نكاية فيك أفضّل أن أصير من قطّاع الطرق والقتلة وانزل إلى الجحيم، على أن أصير مثلك! أكرهك، لست أبي، ولو كنت مائة مرّة من عشّاق أمّي!»

Arab_Books

فاض فيه الكرب والغيظ، وانبجسا منه سيولاً هائجة مزبدة، تنهال على الأب ألفاظاً فاحشة وحانقة. وبعد ذلك ولّى الصبي هارباً، ولم يعد إلاّ مع حلول المساء.

لكن، في الصباح التالي كان قد توارى. ومعه اختفت أيضاً سلّة صغيرة مجدّلة من ألياف اللحاء ذي اللونين، يحفظ فيها المراكبيان القطع النحاسية والفضيّة التي يقبضانها أجراً للعبور. واختفى المركب أيضاً. رآه سدهارتا على الضفّة المقابلة. فالصبي قد فرّ.

«عليّ أن ألحق به -قال سدهارتا الذي كان يرجف منذ أن انهالت عليه شتائم الصبي- إن طفلاً مثله لا يقدر على اجتياز الغابة لوحده. سيموت. علينا أن نبني رمثاً، فزوديفا، لنعبر النهر.»

«سنصنع رمثاً -قال فيزوديفا- لنستعد المركب الذي خطفه الصبي، لكن، دعه يروح، يا صديقي، إنه لم يعد طفلاً، لا تعيه الحيلة. سيبحث عن الطريق إلى المدينة، ومعه حق، لا تنس ذلك. فهو ينفّذ ما أهملته أنت. إنّه يعتني بنفسه، ويسلك دربه. أوه، يا سدهارتا، أراك تتألّم، لكنّك تكابد آلاماً ينبغي الضحك منها، وقريباً ستضحك منها أنت أيضاً.

لم يرد سدهارتا. كان قد تناول الفأس وهمّ بصنع رمث من الخيزران، فساعده فزوديفا في ربط القضبان بحبال من الحلفاء. ثمّ انطلقا. أبعدهما التيّار عن الهدف، فجرّا الرمث، على الضفّة المقابلة، صعوداً، إلى الجهة المعاكسة للتيّار.

«لماذا أخذت معك الفأس؟» سأل سدهارتا.

قال فزوديفا: «ربّما يكون مجذاف المركب ضائعاً.»

Arab_Books

لكنّ سدهارتا عرف ما يفكّر فيه صديقه. فكّر: إن الصبي قد أخفى المجذاف أو كسّره، لينتقم أو ليمنعهما من ملاحقته. وفعلاً، لم يكن المجذاف في المركب. أومأ فزوديفا إلى قاع المركب ونظر إلى الصديق مبتسماً، كأنه يريد أن يقول: «ألا ترى، ماذا يقول لك ابنك؟ ألا ترى أنه يرفض أن تلحق به؟» لكنّه لم يقل ذلك بالكلام. بدأ يصنع مجذافاً جديداً. أمّا سدهارتا، فودّعه ليلحق بالفارّ. ولم يمنعه فزوديفا.

بعد أن طاف سدهارتا زمناً في الغابة، خطر له أنّ بحثه بلا جدوى. فكّر: إما يكون الصبي قد سبقه إلى المدينة، وإما يتخفّى عنه، إن كان ما يزال في الطريق، يتخفّى عن مطارده... ولمّا أمعن في التفكير، وجد أيضاً أنّه لا يخاف على ابنه حقاً، ويعرف في قرارة نفسه بأنّه لم يمت ولا يتعرّض في الغابة لأي خطر. ومع ذلك استمرّ يسير من دون تلكّؤ، لا من أجل إنقاذه، بل لرغبة فيه، وحسب، للرغبة في رؤيته مرّة أخرى. فظلّ يركض حتى وصل إلى مشارف المدينة.

حين بلغ الطريق العريضة بجوار المدينة، توقّف قرب مدخل الحديقة الجميلة التي كانت، يوماً ما، لكمالا، حيث قد رآها، محمولة في الهودج، لأوّل مرّة. نهض الماضي في روحه، رأى نفسه واقفاً هناك ثانية، رأى السماني الشابّ، العاري، ذا اللحية والشعر المكتسي غباراً... طويلاً وقف سدهارتا وحدّق، عبر البوابة المفتوحة، إلى الحديقة، رأى رهباناً في برود صفراء. يتنزّهون تحت الأشجار الجميلة.

طويلاً ظلّ واقفاً، متفكّراً، رائياً أخيلة، مصغياً إلى قصّة حياته. طويلاً ظلّ ينظر إلى الرهبان ويرى محلّهم سدهارتا الشابّ وكمالا الفتيّة، يسيران تحت الأشجار الباسقة. بوضوح رأى نفسه في ضيافة كمالا، رأى

Arab_Books

كيف ينال قبلتها الأولى ويودّع بنظرة ازدراء صلفة براهمانيّته، ويبدأ بشوق وكبرياء حياته الدنيوية. رأى كمسوامي، رأى الخدم والولائم ولاعبي النرد والموسيقيين، رأى عصفور كمالا يغرّد في القفص، عاش هذا كلّه مرّة أخرى، تنفّس سانْسرا، أحسّ نفسه مرّة أخرى كهلاً كليلاً، أحسّ ثانية بالقرف، أحسّ ثانية بالرغبة في إفناء ذاته، وشفي ثانية بفضل الأوم المقدّس.

وبعد أن طال وقوفه عند بوابة الحديقة، تيقّن سدهارتا من أن النزوة التي دفعته إلى هذا المكان، نزوة بلهاء، إذ لا يستطيع أن يساعد ابنه، وليس له أن يتشبّث به. عميقاً أحسّ بالحبّ للهارب في قلبه، أحسّ به جرحاً، وأدرك في الوقت نفسه أنّ الجرح ليس فيه ليعمّقه، بل ليستحيل زهرة ويتألّق.

فانتابه الحزن، لأنّ الجرح لمْ يزدهرْ، ولمْ يتألق. ولم يبق فيه، محلّ الأمنية التي حملته إلى المكان بحثاً عن الابن الضالّ، سوى الخواء. حزيناً جلس على الأرض، وأحسّ أنّ شيئاً ما في قلبه يموت، شعر بالخواء وغاب عنه الهدف والسرور. جلس مستغرقاً وانتظر. فهذا ما تعلّمه بجوار النهر: أن ينتظر، ويصبر، ويصغي. فجلس في غبار الطريق، يصغي لقلبه، لنبضه الكليل الحزين، وانتظر صوتاً. ربّ ساعة قعد مصغياً، ولم يعد يرى أي صورة، غرق في الخواء وتراخى من دون أن يرى طريقاً. وكلّما أحسّ بالجرح يضطرم ألماً، قال في سرّه «أوم»، وامتلأ بأوم. لمحه الرهبان في الحديقة، ولما ظلّ قاعداً ساعات طويلة، واكتسى شعره الشيّب غباراً، أقبل عليه أحدهم ووضع أمامه حبّتي بيزانغ. أمّا الكهل فلم يره.

Arab_Books

أيقظته من حالة الغياب يدٌ لمست كتفه. للحال تعرّف إلى هذه اللمسة، الرقيقة، الحيّية، وعاد إلى وعيه. نهض ورحّب بفزوديفا الذي قد سعى وراءه. وحين نظر إلى وجه فزوديفا العطوف، إلى الغضون الصغيرة الممتلئة كلّها ابتسامة، وإلى العينين الفرحتين، ابتسم هو أيضاً. والآن رأى الثمرتين أمامه على الأرض، فتناولهما، أعطى واحدة للمراكبي وأكل الأخرى. بعد ذلك عاد في صحبة فزوديفا صامتاً إلى الغابة، رجع إلى المركب والمعبر. لم يتكلّم أحدهما على ما حدث في هذا اليوم، لم يذكر أحدهما اسم الصبي، لم يتكلّم أحدهما على فراره، ولا أحد تكلّم على الجرح. في الكوخ استلقى سدهارتا على فراشه، وحين دنا منه فزوديفا بعد زمن ليقدّم له كوباً من حليب جوز الهند، وجده نائماً.

Arab_Books

أوه

زمناً طويلاً ظلّ الجرح يتّقد مؤلماً. ربّ مسافر عبر النهر مصطحباً معه ابناً أو ابنة، وسدهارتا الذي كان يعدّيهم النهر، لم ير أيّاً منهم من دون أن يخالجه الحسد، من دون أن يفكّر: «ألوف مؤلفة... وجميعهم يتنعّمون بألذّ سعادة... لِمَ أنا لا؟ حتى للأشرار، للصوص وقطّاع الطرق، أطفال محبّون يبادلونهم الحبّ... إلاّ أنا!» هكذا بات يفكّر الآن، بهذه البساطة الخالية من التفهّم؛ فإلى هذه الدرجة صار يشبه الأنام الأطفال.

على نحو مغاير نظر الآن إلى الناس، قلّت نظرته فطنة وكبرياء، وازدادت، في المقابل، دفئاً وفضولاً ومواساة. وحين كان يعدّي مسافرين من الدهماء، من الأنام الأطفال، تجّاراً وجنوداً ونسوة، فإنه ما أحسّ بهم غرباء، كما في الماضي: كان يفهمهم، يفهمهم ويشاطرهم حياتهم، التي لا تسيّرها الأفكار والبصائر، بل الغرائز والأماني وحدها، فيحسّ نفسه مثلهم. وبالرغم أنّه اقترب من الكمال وحمل بجرحه الأخير، فقد بدا له أنّ الأنام الأطفال إخوانه، وقد خلعت شهواتُهم وألوانُ غرورهم وتفاهاتُهم ما بها من خصال مثيرة للسخرية، فصارت، في نظره، مفهومة ومستحبّة

Arab_Books

وجديرة بالإجلال أيضاً. رأى امرأة تكنّ لطفلها حبّ الأم الأعمى، وأباً مغتراً يتباهى بابنه الوحيد تباهياً أبله أعمى، وامرأة شابّة مغرورة، تستميت بعمى في الزينة وجذْب نظرات المعجبين من الرجال -وكلّ هذه الغرائز، كلّ هذه المسالك الصبيانية، كلّ هذه الغرائز والنزوات البسيطة البلهاء، التي كانت أيضاً قوية جداً، وحيّة جداً، ونازعة إلى التحقّق بسطوة، كفَتْ في نظر سدهارتا الآن عن أن تكون مجرّد طيش طفولي، وهو يرى الأنام يحْيَون من أجلها، يراهم ينجزون في سبيلها ما لا يُنجز، يقومون بأسفار ويشنّون حروباً، يتألّمون ويجالدون ويحتملون ما لا يُحتمل؛ ولذلك كلّه كان يحبّهم، استطاع أن يحبّهم، ويرى في كلّ فعل من أفعالهم، في كلّ هوى من أهوائهم، الحياة، الحيّ، اللافاني، البراهمان. فهؤلاء الناس جديرون بالمحبّة والإعجاب، في وفائهم الأعمى، في قوّتهم وصلابتهم العمياء. لا شيء ينقصهم، وما من شيء يتفوّق به العالِم والمفكّر عليهم سوى بصغيرة من الصغائر، صغيرة واحدة وحيدة: الوعي، الفكرة الواعية بوحدة الحياة كلّها. وغير مرّة ارتاب سدهارتا في هذا العلم، وفي هذه الفكرة: أتستحقّ أن تُنسب إليها قيمة عالية؟ أليست بدورها، ربّما، ذريّة طفولية أنجبها المفكّرون، الأنام اللاأطفال المفكّرون؟! في سائر الشؤون يجاري أنام الدنيا الحكيم عادة، ويتفوّقون عليه غالباً، مثلما تبدو الحيوانات نفسها، أحياناً، متفوّقة على الإنسان، وهي تسعى إلى حاجاتها في إصرار وصلابة لا تلين.

ببطء ازدهرت، ببطء نضجت في سدهارتا المعرفة، نضج فيه العلم بماهية الحكمة الحقيقية، وبما هي غاية بحثه الطويل. إنها لا تعدو أن تكون استعداداً للنفس، قدرة وفنّاً خفيّاً يؤهّل المرء أن يفكّر فكرة

Arab_Books

الوحدة، أن يشعر بالوحدة ويستنشقها في كلّ لحظة من اللحظات وهو في خضمّ الحياة. بطيئاً ازدهر فيه ذلك، أشرق له من وجه فزوديفا الطفولي الهرم: تناغمٌ، علمٌ بكمال العالم السرمدي، ابتسامٌ، وحدة.

لكنّ الجرح ظلّ يؤلم. بلهفة ومرارة ذكر سدهارتا ابنه، دلّل حبّه وحنانه في القلب، ترك الألم يفتك به، ارتكب حماقات الحبّ كلّها. فهذه الشعلة لا تخبو من تلقاء نفسها.

وذات يوم، إذ اضطرم الجرح ألماً، عبر سدهارتا النهر، والشوق يطارده، فنزل وأراد الذهاب إلى المدينة ليبحث عن ابنه. كان النهر يجري وديعاً وخافتاً، فالموسم موسم الجفاف، لكن في صوته نبرة غريبة: ضحكة! يضحك الصوت بوضوح. يضحك النهر، يضحك ضحكاً رنّاناً واضحاً من المراكبي الهرم، توقّف سدهارتا، وانحنى على الماء، ليرهف السمع، فرأى في المياه المنسابة هادئة انعكاس وجهه، وفي هذا الوجه المنعكس شيءٌ ذكره بأمر منسي، وإذ تفكّر، وجده: يشبه هذا الوجه وجهاً آخر، كان يعرفه، ذات يوم، ويحبّه ويخافه أيضاً: وجه أبيه، البرهمي. فتذكّر كيف أجبر أباه، منذ أمد بعيد وهو شاب، على أن يسمح له بالانضمام إلى التائبين، وكيف ودّعه ورحل ولم يرجع قط. ألم يقاس أبوه أيضاً الآلام نفسها التي يكابدها الآن بسبب ابنه؟ ألم يمت أبوه منذ زمن طويل، وحيداً ومن دون أن يرى ابنه ثانية؟ ألا ينتظره المصير نفسه؟ أليس هذا التكرار، هذا الدوران في دائرة وخيمة، ملهاة؟ أليس أمراً عجيباً وغبياً؟

ضحك النهر. نعم، الأمر هكذا، يعود كلّ شيء، كلّ ما لا يُقاس حتى النهاية ولا يُحلّ. تُقاسى الآلام نفسها أبداً. استقلّ سدهارتا المركب

Arab_Books

وعاد به إلى الكوخ، ذاكراً أباه، ذاكراً ابنه، متنازعاً مع ذاته، هو الذي ضحك منه النهر، موشكاً على اليأس، وميّالاً أيضاً إلى الضحك عالياً من نفسه والعالم كلّه. أوه، لمْ يزدهرْ الجرح، ومازال قلبه يعاند القدر، لمْ يشرقْ ألمه إشراق الانشراح والانتصار. مع ذلك أحسّ بأمل، وحين عاد إلى الكوخ، شعر برغبة شديدة في أن يفتح نفسه لفزوديفا، ويكشف له كلّ شيء، ويبوح له، للمعلّم في الإصغاء، بكلّ شيء.

جلس فزوديفا في الكوخ يجدّل سلّة. لقد استقال من قيادة المركب. فبصره بدأ يكلّ، وليس البصر وحده. خفّت أيضاً قوة يديه وذراعيه. ولم يسلم من التغيّر والذبول سوى السرور والانشراح اللذين في وجهه.

جالس سدهارتا الهرم، وبطيئاً بدأ يتكلّم. روى له الآن، ما لم يتكلّما عليه يوماً، على ذهابه إلى المدينة، يومذاك، على الجرح المضطرم وحسده لدى رؤية آباء سعداء، على علمه بحماقة تلك الأماني وحملته اللامجدية عليها. روى كلّ شيء، واستطاع أن يبوح بكلّ شيء، حتى بأكثر الأمور إحراجاً، استطاع أن يكشف كلّ شيء ويقصّ كلّ شيء. عرض جرحه صراحة، وذكر أيضاً فراره في هذا النهار، قصّ كيف اجتاز النهر، مثل هارب طائش مستعدّ للزحف نحو المدينة، قصّ كيف ضحك النهر.

وبينما تكلّم سدهارتا، وتكلّم بإفاضة، وبينما أصغى إليه فزوديفا بوجه ساكن، كان يحسّ بهذا الإصغاء إحساساً أقوى مما أحسّ به يوماً، شعر كيف تنساب آلامه ومخاوفه، كيف ينساب أمله الخفي إلى الطرف الآخر ويرتدّ منه إليه. كان كشْف الجرح لهذا المصغي كغسله في النهر إلى أن يبرد لهابه ويطيب ويصير والنهر واحداً. وبينما ظلّ سدهارتا

Arab_Books

يتكلّم، ظلّ يعترف ويبوح، ازداد شعوره بأنّ من يصغي إليه لم يعد فزوديفا، لم يعد إنساناً، بأنّ هذا المصغي الساكن يمتصّ اعترافه كما تمتصّ الشجرة مياه الأمطار، بأنّ هذا الساكن هو النهر نفسه، هو الإله نفسه، هو السرمدي نفسه. وبينما نسي سدهارتا أن يفكّر في ذاته وفي جرحه، أخذت تتملّكه المعرفة بجوهر فزوديفا المتغيِّر. وكلّما ازداد إحساساً به ونفاذاً فيه، قلّ دهشة وتعجّباً، وبدأ يتيقّن من أنّ الأمور تجري مجراها الطبيعي، من أن فيزوديفا، منذ أمد طويل، منذ آماد، على هذه الحال، وكلّ ما في الأمر أنه لم يكن واعياً بذلك تماماً، ومن أنّه -هو نفسه- لا يعود الآن مختلفاً عنه اختلافاً بيّناً. أحسّ بأنّه يرى فزوديفا الهرم الآن، كما يرى الشعب الآلهة، وبأنّ لا دوام لذلك. فبدأ يودّع فزوديفا في سرّه وقلبه. وأثناء ذلك كلّه، استمرّ في الكلام بلا انقطاع.

لما فرغ من الكلام، سدّد فزوديفا بصره العطوف، المتضائل قوته قليلاً، إلى سدهارتا ولم يتكلّم. أشرق عليه في صمت حبّاً وبهجة وتفهّماً وعلماً. تناول يد سدهارتا وقاده إلى الضفّة. جلس إلى جواره وابتسم للنهر.

قال: «لقد سمعتَه يضحك. لكنّك لم تسمع كلّ شيء. دعنا نصغي، ستسمع المزيد.»

فأصغيا. وديعة كانت نبرة النهر في نشيده المتعدّد الأصوات. نظر سدهارتا إلى الماء، وفي المياه المنسابة تبدّت له صور: تبدّى أبوه، وحيداً، حزيناً على ابنه، تبدّى هو نفسه، وحيداً ومكبّلاً أيضاً بأغلال الشوق إلى الابن البعيد؛ تبدّى ابنه، وحيداً هو، الصبي، أيضاً، ومندفعاً بتوق إلى

Arab_Books

مسار أمانيه الفتية الملتهب، وكلّ منهم متّجه نحو هدفه، كلّ منهم مأسور بهدفه، وكلّ متألّم. غنّى النهر بصوت مصبوغ بالآلام، ملهوفاً غنّى، ملهوفاً انساب إلى هدفه، وشجية نبرة صوته.

« أتسمع؟ » سألت نظرة فزوديفا الصامتة. وسدهارتا أومأ بالإيجاب.

« أرهف السمع أكثر! » همس فزوديفا.

وسدهارتا بذل جهداً ليرهف السمع. امتزجت صورة الأب بصوته وصورة الابن، وتبدّت صورة كمالا أيضاً فتبدّدت، وصورة غوفيندا، وصور أخرى، وامتزجت واستحالت جميعها نهراً، تسعى -وهي جميعها النهر- إلى الهدف، ملهوفة، تائقة، متألّمة، ونبرة النهر شجيّة، ناضحة بالشوق، ناضحة بالألم المضطرم، ناضحة بالرغبة التي لا تُروى. إلى الهدف يسعى النهر، رآه سدهارتا يتدفّق، النهر، المتألّف منه ومن أقرانه وجميع الأنام الذين رآهم يوماً، وتدفّقت هذه الأمواج والمياه كلّها، متألّمة، إلى أهداف، إلى أهداف كثيرة، إلى الشلال، إلى البحيرة، إلى التيّار، إلى البحر، وبُلغت كلّ الأهداف وتلا كلّ هدف آخرٌ جديد، واستحال الماء بخاراً وصعد إلى السماء، استحال مطراً وانهمر من السماء، استحال نبعاً، وجدولاً، ونهراً، يسعى من جديد، يجري من جديد. لكنّ الصوت الملهوف قد تغيّر. كانت نبرته ما تزال شجيّة، متلمّسة، لكنّ أصواتاً أخرى انضمّت إليها، أصوات الفرح والألم، أصواتاً خيّرة وشريرة، ضاحكة وحزينة، مائة صوت، ألف صوت...

أصغى سدهارتا. صار الآن مصغياً تماماً، مستغرقاً في الإصغاء تماماً، فارغاً وممتصّاً. فأحسّ بأنّه انتهى الآن من تعلّم الإصغاء. مراراً

Arab_Books

كان قد سمع هذا كلّه، هذه الأصوات الكثيرة في النهر، إلاّ أن النبرة وقعت الآن جديدة على السمع. وقد امتنع عليه تمييز الأصوات الكثيرة، تمييز الأصوات المرحة عن الراثية، الطفولية عن الرجالية، فكلّها متداخلة، شكوى المشتاق وضحكة العالم، صرخة الغاضب وأنين المحتضر، كلّها وحدة، كلّها متناسجة ومتضافرة، وعلى ألف منوال متواشجة. وكلّ ذلك مجتمعاً، كلّ الأصوات والأهداف والأشواق، كلّ الآلام واللذّات، كلّ الخير والشرّ مجتمعاً، هو العالم. كلّ ذلك مجتمعاً هو نهر الأحداث، وموسيقى الحياة.

وإذا ما أنصت سدهارتا بدقّة إلى النهر هذا، إلى هذه الأغنية المتألّفة من آلاف الأصوات، وإذا ما امتنع عن الإصغاء للألم أو الضحك وعن إقران نفسه بصوت معيّن من الأصوات وعن الغوص فيه، إذا ما استمع إلى الجميع، إلى الكلّ وإلى الوحدة، فإنّ نشيد الألف صوت العظيم يتألّف من لفظ واحد: أوم، الكمال.

«أتسمع؟» سألت نظرة فزوديفا ثانية.

وبهيّة أشرقت ابتسامة فزوديفا. حلّقت ساطعة فوق غضون محيّاه الهرم كلّها، كما حلّق الأوم فوق أصوات النهر كلّها. بهية أشرقت ابتسامته، حين نظر إلى الصديق، وبهية تألّقت الآن، في وجه سدهارتا، الابتسامةُ نفسها. ازدهر جرحه، تألّق ألمه، وقد انسابت ذاته إلى الوحدة.

في تلك الساعة كفّ سدهارتا عن معاندة القدر، كفّ عن التألّم. في وجهه ازدهرت بهجة علم، لم تعد تعارضه الإرادة، علم يعرف بالكمال، ويوافق نهر الأحداث، ومجرى الحياة، مشاطراً الألم واللذّة بلا تحفّظ، مستغرقاً في الانسياب، منتمياً إلى الوحدة.

Arab_Books

حين نهض فزوديفا من المقعد بجوار الضفّة، حين نظر إلى عيني سدهارتا ورأى بهجة العلم متألّقة، مدّ يده خفراً ولمس كتفه على طريقته الرقيقة الحيّية وقال: «لقد انتظرت هذه الساعة، أيها العزيز. والآن جاءت. فدعني أرحل. طويلاً انتظرت هذه الساعة، طويلاً كنت المراكبي فزوديفا، والآن كفى. وداعاً أيها الكوخ، وداعاً أيها النهر،وداعاً أيها السدهارتا!»

انحنى سدهارتا انحناءة كبيرة أمام المودِّع.

«كنتُ أعرف ذلك -قال هامساً- ستذهب إلى الغابات؟»«أذهب إلى الغابات، أذهب إلى الوحدة»، قال فزوديفا مشرقاً.

ومشرقاً رحل. تابعه سدهارتا بنظراته. بسرور عميق، وبجدّ عميق نظر إليه، رأى خطواته مليئة بالسلام، رأى هامته مكلّلة بالوهج، رأى قامته متسربلة بالضياء.

Arab_Books

غوفيندا

مع جمع من الرهبان استراح غوفيندا ذات يوم في الحديقة، التي أهدتها السريّة كمالا لتلاميذ الغوتاما. فسمع أقوالاً عن مراكبي عجوز، يعيش على مسافة سير يوم واحد بجوار النهر، ويظنّه الكثيرون حكيماً. ولمّا تابع غوفيندا مسيره، سلك الطريق إلى المعبر، تائقاً إلى رؤية هذا المراكبي. فبالرغم أنّه عاش طوال حياته وفقاً للقاعدة، وكان، لعمره وتواضعه، موضع إجلال الرهبان الأصغر سنّاً، إلا أن شعلة البحث والقلق في قلبه لمّا تنطفئ.

وصل إلى النهر وسأل الكهل العبور. وإذ نزلا من المركب، على الجهة المقابلة، قال للكهل: «إنك تغدق بالخير على إخواننا من الرهبان والحجّاج، وقد عبّرت الكثيرين منّا النهر. ألستَ أنت أيضاً، يا مراكبياً، باحثاً عن الطريق الصواب؟»

وسدهارتا قال مبتسماً من عينيه الكليلتين: «أتسمّي نفسك باحثاً أيها الجليل، وأنت طاعن في السنّ وترتدي رداء رهبان الغوتاما؟»

«صحيح إنّي كبير في السنّ -قال غوفيندا- لكنّي لم أكفّ عن البحث قط. ولن أكفّ عنه. فذلك، على ما يبدو، قدري. ويبدو لي أنّك

Arab_Books

كنت أيضاً من الباحثين. فهل تتفضّل بالإفصاح لي عن الأمر، أيها المحترم؟»

وسدهارتا قال: «ماذا عسى أن أقوله لك، أيها الجليل؟ أ أقول لك إنّك تفرط في البحث؟ إنك لا تجد شيئاً لكثرة ما تبحث؟»

«وكيف ذلك؟» سأل غوفيندا.

«حين يبحث المرء -قال سدهارتا- يحدث له بسهولة، ألاّ ترى عينه إلاّ ما يبحث عنه، فلا يستطيع أن يجد شيئاً ولا أن يستوعب شيئاً، لأنّه لا يكفّ عن التفكير في المنشود، لأنّ له هدفاً، ولأنّه مأخوذ بالهدف. البحث يعني: أن يسعى المرء وراء هدف. أما العثور فيعني: أن يكون المرء حرّاً، رحباً ومنشرحاً، وبلا هدف. ولعلّك، أيّها الجليل، باحث فعلاً، لأنّك، ساعياً وراء هدفك، تغفل أمراً هو تحت عينيك تماماً.»

«لا أفهم بعد تماماً، ماذا تقصد» قال له غوفيندا.

وسدهارتا قال: «ذات يوم، أيّها الجليل، قبل سنين طويلة، قد جئت مرّة إلى هذا النهر، ووجدتَ بجواره شخصاً نائماً. فجالسته لتحرس نومه. لكنّك أيها الغوفيندا، لم تتعرّفه.»

مذهولاً، وكالمسحور، نظر الراهب إلى عيني المراكبي.

«هل أنت سدهارتا؟ -سأل بصوت خفر- لم أتعرّفك هذه المرّة أيضاً! بحرارة أحيّيك، يا سدهارتا، كم تسرّني رؤيتك ثانية! لقد تغيّرت كثيراً، أيّها الصديق. -، والآن الآن صرت إذاً مراكبياً؟»

بلطف ضحك سدهارتا. «نعم، أنا مراكبي. إنّ بعض الأنام، يا غوفيندا، يتغيّرون كثيراً، ويلبسون ألبسة كثيرة. وأنا واحد منهم، أيها العزيز. أهلاً وسهلاً بك، يا غوفيندا، أرجو أن تقضي الليلة في كوخي.»

Arab_Books

مكث غوفيندا الليلة في الكوخ ونام على الفراش، الذي كان، يوماً، فراش فزوديفا. طرح أسئلة كثيرة على صديق صباه، وكان على سدهارتا أن يروي له أشياء كثيرة من حياته.

وعندما حان وقت الرحيل، في الصباح التالي، قال غوفيندا ببعض تردّد: «قبل أن أكمل مسيري، يا سدهارتا، اسمح لي بسؤال أخير. ألك تعليم؟ ألك إيمان أو علم تتبعه، ويسّر عليك العيش وفعل الصواب؟»

وسدهارتا قال: «تعلم، يا عزيزي، أنّي بدأت أرتاب في التعاليم والمعلّمين منذ أن كنت شاباً، آنذاك، حين عشنا عند التائبين في الغابة، فأعرضت عنهم وبقيت على هذه الحال. رغم ذلك، كان لي منذ ذلك الوقت معلّمون كثيرون: سريّة جميلة كانت معلّمتي زمناً طويلاً، وتاجر غنيّ كان معلمي، وبعض من لاعبي النرد. وذات مرّة، كان معلّمي تلميذٌ متجوّل من تلامذة البوذا، جالسني حين غفوت في الغابة أثناء الحجّ. منه تعلّمتُ أيضاً، وأنا له أيضاً ممنون، ممنون جداً. لكنّ أكثر الأشياء التي تعلّمتُ، تعلّمتُها من هذا النهر، ومن سلفي، المراكبي فزوديفا. كان إنساناً بسيطاً جداً، فزوديفا... لم يكن مفكّراً، لكنّه علِم بما هو الضروري علْم غوتاما. كان كاملاً وقديساً.»

قال غوفيندا: «على مايبدو لي، يا سدهارتا، مازلتَ تحبّ التهكّم. أصدّقك وأعرف أنّك لم تتبع معلّماً واحداً. لكن ألم تجد بنفسك، إن لم يكن تعليماً، إنّما أفكاراً أو معارف معينة، تخصّك وتيسّر عليك الحياة؟ لو تفضّلت وقلتَ لي شيئاً منها. فستبهج قلبي.»

وسدهارتا قال: «كانت لي أفكار ومعارف، نعم... على الدوام. وأحياناً شعرتُ، لمدّة ساعة، أو يوم، أنّ فيّ علماً، كما يشعر المرء أنّ في

Arab_Books

قلبه حياة. ربّ فكرة جاءتني، لكنّه يصعب عليّ أن أطلعك عليها. ففكرة من الأفكار التي وجدتُها، يا عزيزي غوفيندا، تقول: لا يمكن الإفضاء بالحكمة. فالحكمة التي يحاول الحكيم الإفضاء بها، تبدو دائماً كالحماقة.»

«أتمازحني؟» سأل غوفيندا.

«لا أمزح. أقول ما وجدت. يمكن الإفضاء بالعلم، لكن ليس بالحكمة. يمكن للمرء أن يجد الحكمة، أن يعيشها، أن يكون محمولاً بها، أن يجترح بها الخوارق، لكن لا يمكن له أن يقولها ويعلّمها. هذا ما كنتُ أستشفّه أحياناً وأنا شابّ، وما دفعني للابتعاد عن المعلّمين. لقد وجدتُ فكرة، يا غوفيندا، ستظنّها أيضاً مزحة أو بلاهة، لكنّها أفضل فكرة لي. ومفادها: إنّ كلّ حقيقة لها ضدّها، وهو حقيقيّ مثلها تماماً! أعني: لا يمكن الإفضاء بحقيقة ما وإلباسها لبس الألفاظ، إلا لدى تناولها من وجه واحد. وكلّ ما يمكن أن يُفكّر فيه بالأفكار ويُقال بالكلام هو ذو وجه واحد أبداً، هو مبتور ونصف، يفتقر إلى الكليّة وإلى الدائرة وإلى الوحدة. عندما تكلّم غوتاما المتعالي على العالم، معلّماً، كان عليه أن يقسمه إلى سانْسرا ونيرفانا، إلى تراء وحقيقة، إلى ألم وخلاص. فمن يريد أن يعلّم لا يمكن أن يفعل خلاف ذلك، وما من طريق آخر ينهجه. لكنّ العالم نفسه، الكائن حولنا وفي دواخلنا، ليس ذا وجه واحد البتّة. ما من إنسان أو فعل، هو بكلّيته سانسرا أو نيرفانا، ولن يكون هكذا يوماً. ما من إنسان هو بكلّيته قديس أو خاطئ. يتراءى لنا ذلك، لأنّنا خاضعون للخداع إنّ الزمان شيء حقيقي. إنّ الزمان، يا غوفيندا، ليس حقيقياً. خبرتُ ذلك مراراً وتكراراً. وإن لم يكن الزمان حقيقياً، فإنّ

Arab_Books

الفاصل القائم، على ما يبدو، بين العالم والأبدية، بين الألم والنعيم، بين الشرّ والخير، تراء أيضاً.»

«وكيف هذا؟» سأل غوفيندا واجلاً.

«اسمعني جيداً، عزيزي، اسمع! الآثم، الذي هو أنا أو أنت، هو آثم، لكنّه سيعود يكون ذات يوم براهما، سيبلغ ذات يوم نيرفانا، سيكون بوذا -والآن انظر: هذا الـ «ذات يوم» هو تراء، هو مجرّد مجاز! الآثم ليس في الطريق المؤديّة إلى البوذية، ليس في طور تطوّر، وإن كان تفكيرنا عاجزاً عن تصوّر الأشياء على نحو آخر.لا، في الآثم الآن واليوم البوذا المقبل. مستقبله كلّه موجود، وعليك أن تجلّ فيه، وفيك، وفي أيّ كان، البوذا الصائر، الممكن، المستتر. إنّ العالم، يا صديقي غوفيندا، ليس غير كامل، ولا سائراً على طريق الاكتمال البطيء: لا، إنّه في كل لحظة مكتمل. كلّ خطيئة تحوي في ذاتها النعمة، كلّ طفل صغير يحوي في ذاته الهرم، كلّ رضيع يحوي الموت، كلّ محتضر الحياة السرمدية. ولا يمكن لأيّ إنسان أن يرى، كم قطع الآخر من طريقه. في اللصّ والمقامر ينتظر بوذا، وفي البرهمي ينتظر اللص. ثمّة في التأمّل العميق، إمكان لنفي الزمان، لرؤية كلّ الحياة، التي كانت، والتي هي، والتي سوف تكون، بوصفها متزامنة، وإذا ذاك كلّ شيء خيّر، كلّ شيء مكتمل، كلّ شيء براهمان. لذلك، يبدو لي الكائن خيّراً، الموت والحياة، الخطيئة والقداسة، الفطنة والبلاهة؛ ذلك كلّه يبدو لي كما يجب أن يكون، ذلك كلّه لا يحتاج سوى إلى موافقتي، إلي إرادتي، إلى استحساني المحبّ، فيكون عندي خيّراً، ولا يستطيع أن يضرّني البتّة. لقد اختبرتُ بجسدي وروحي، أنّي كنتُ محتاجاً إلى الخطيئة، إلى

Arab_Books

الشهوة والغرور والطمع بالأملاك، أنّي كنتُ محتاجاً إلى أردأ يأس، لأتعلّم العدول عن المعاندة، لأتعلّم أن أحبّ العالم، لأكفّ عن مقارنته بعالم أرغب فيه وأتخيّله، بنوع من الكمال الذي ابتدعتُه، لا بل لأتركه كما هو وأحبّه وأحبّ الانتماء إليه. -هذه، أيها الغوفيندا، بعض من الأفكار التي دارت في بالي.»

انحنى سدهارتا. التقط حجراً من الأرض، وزانه في راحة يده.

قال بخفّة: «هذا حجر، وفي زمن معيّن سيكون، ربّما، تراباً وسيستحيل التراب نبتة أو حيواناً أو إنساناً. في الماضي كنت سأقول: هذا الحجر مجرّد حجر. إنه بلا قيمة وينتمي إلى عالم المايا: لكن، بما أنّه يمكن أن يستحيل، في دورة التحوّلات، إنساناً وروحاً كذلك، فإني أوليه أيضاً اعتباراً. على هذا النحو كنت أفكّر في الماضي. أمّا اليوم فأفكّر: هذا الحجر حجر، لكنّه حيوان أيضاً، وإله، وبوذا. لا أحترمه وأحبّه لأنّه يمكن أن يصير، في يوم من الأيام، هذا أو ذاك، بل لأنّه منذ الأزل وإلى الأبد كلّ شيء -ولأنّه حجر بالذات، لأنّه يظهر لي الآن واليوم كحجر؛ لذلك بالذات، أحبّه وأرى قيمة في كلّ أخدود من أخاديده، وفي كلّ تجويف من تجاويفه، في لونه الأسمر أو الرصاصي، وفي صلابته، وفي جفاف سطحه أو رطوبته، وفي الصوت الذي يصدر عنه حين أدقّ عليه. توجد أحجار تبدو عند الملمس كالزيت أو الصابون، وأخرى كورقة الشجر، وأخرى كالرمل، وكلّ حجر فريد ويصلّي الأوم على طريقته، كلّ حجر براهمان، وهو في الوقت نفسه، وبالقدر نفسه، حجر أيضاً، زيتي الملمس أو صابوني؛ وهذا بالذات ما يعجبني ويبدو لي رائعاً وجديراً بالعبادة. -لكنّي لا أريد أن أسترسل أكثر. فالكلام لا يلائم المعنى

Arab_Books

الخفيّ، وكلّ شيء يتغيّر قليلاً، حين نتلفّظ به، يتحرّف قليلاً ويبدو كالبلاهة.- نعم، وهذا أيضاً جيد جدا وعلى خاطري تماماً. يلائمني أن يقع، ما لامرئ كنزه وحكمته، على سمع امرئ آخر وكأنّه بلاهة. »

صامتاً أنصت غوفيندا.

«لماذا قلت لي ذلك، عن الحجر؟» سأل متردّداً بعد لحظة من الصمت.

«فعلت ذلك من دون قصد. أو ربّما قصدت أن أقول أنّي أحبّ الحجر والنهر وهذه الأشياء كلّها التي نشاهدها ويمكن لنا أن نتعلّم منها. أستطيع أن أحبّ الحجر، غوفيندا، وكذلك الشجرة أو قطعة من قشرتها. فهذه أشياء ويمكن للمرء أن يحبّ الأشياء. لكنّي لا أستطيع أن أحبّ الألفاظ. لذا لا تلائمني التعاليم، ليس لها صلابة أو طراوة، ليس لها ألوان ولا أطراف، ولا رائحة ولا مذاق، ليس فيها سوى كلمات. ولعلّ هذا ما يمنعك من إيجاد السلام، أعني كثرة الكلمات. فالخلاص والفضيلة، وكذلك السانسرا والنيرفانا مجرّد كلمات، يا غوفيندا، لا يوجد شيء هو نيرفانا، لا يوجد سوى كلمة نيرفانا. »

وغوفيندا قال: «ليس نيرفانا مجرّد كلمة، يا صديقي. إنّه فكرة. »

واستطرد سدهارتا: «فكرة، هذا صحيح، على الأرجح. لكنّي أعترف لك، يا عزيزي: لا أفرّق بين الأفكار والكلمات. وأقول لك صراحة، إنّي لا أبالي بالأفكار كثيراً هي الأخرى. أهتمّ أكثر بالأشياء. هنا، في هذا المركب، على سبيل المثال، كان رجل سلفي ومعلّمي، رجل قدّيس. وهذا الرجل كان يؤمن طوال أعوامه بالنهر وحسب. لقد لاحظ أنّ صوت النهر يناجيه، فتعلّم منه؛ والنهر علّمه وربّاه، وبدا له كالإله.

Arab_Books

أعواماً طويلة لم يكن الرجل يعلم أن كلّ نسمة، كلّ غيمة، كلّ فراشة، كلّ حشرة، إلهية أيضاً وتعلم وتستطيع أن تعلّم المرء بقدر ما علّمه النهر المبجّل. لكن، حين رحل هذا القديس إلى الغابات، كان عالماً بكلّ شيء، بأكثر مما تعلم وأعلم، من غير معلّمين ولا كتب، لمجرّد أنّه آمن بالنهر.»

قال غوفيندا: «لكن، أترى أنّ ذلك الذي تسمّيه الأشياء هو حقيقي وذو ماهية؟ أليس مجرّد سراب للمايا، مجرّد خيال وتراء؟ حجرك، ونهرك، وشجرتك، أهي حقيقيات؟»

قال سدهارتا: «هذا أمر لا يعنيني كثيراً، هو الآخر، فلتكن هذه الأشياء ترائياً... فأنا أكون من ثمّ ترائياً أيضاً، وهكذا تظلّ هذه الأشياء أندادي أبداً. وهذا ما يجعلها عزيزة عليّ وجديرة بالاحترام: إنها مثلي. لذلك أستطيع أن أحبّها. وهاك تعليماً، ستضحك منه: إنّ الحبّ، أيها الغوفيندا، يبدو لي أهمّ الأشياء إطلاقاً... فتأويل العالم وسبر أغواره أو احتقاره، من شأن المفكّرين الكبار، على ما أظن. أمّا أنا، فلا يهمّني سوى أن أقدر على حبّ العالم، يهمّني ألاّ أحتقره، ألاّ أكرهه وأكره ذاتي، بل أن أقدر على النظر إليه، وإليّ، وإلى الكائنات كلّها، بحبّ وإعجاب وإجلال.»

«افهم ذلك -قال غوفيندا- لكنّ هذا بالذات، ما استبانه المتعالي سراباً. إنّه أوصانا بالمودّة، بالمهاودة، بالمواساة، بالقبول، لا بالحبّ. ونهانا من أن نكبّل قلوبنا بالحبّ للدنيوي.»

«أعلم -قال سدهارتا بابتسامة تشرق ذهبيّة- أعلم، يا غوفيندا. وها نحن وسط دغل الآراء والمنازعة بالألفاظ. إذ لا يمكن لي أن أنكر أنّ كلامي حول الحبّ يناقض كلام غوتاما تناقضاً ظاهراً. ولذلك بالضبط

Arab_Books

أرتاب كثيراً بالألفاظ، لأنّي أعلم أنّ هذا التناقض وهم، أعلم أنّي على وفاق مع غوتاما. فكيف له ألاّ يعرف الحبّ؟ هو الذي كان يعلم بالإنسانية وبفنائها وبطلانها، وأحبَّ الناس مع ذلك حبّاً كبيراً، دفعه إلى بذل حياة شاقّة طويلة كلّها ليساعدهم ويعلّمهم! فلديه أيضاً، لدى معلّمك الكبير، أفضّل الشيء على الكلام، وأرى فعله وحياته أهمّ من كلامه، وإيماءات يده أهمّ من آرائه. لا أرى كبره في الكلام ولا في التفكير، بل في الفعل والحياة وحدهما.»

طويلاً صمت الرجلان الهرمان. ثمّ قال غوفيندا، وهو ينحني مودّعاً: «أشكرك، يا سدهارتا، لأنّك أطلعتني على أفكارك. بعضها غريبة ولم أستطع أن أفهمها كلّها الآن. لكن، مهما تكن، فإني أشكرك، وأتمنّى لك أياماً هادئة.»

(لكن في سرّه فكّر: «هذا السدهارتا إنسان عجيب، يتلفّظ بأفكار عجيبة. وتعليمه يبدو مثل ضرب من البلاهة. كم يبدو تعليم المتعالي الصافي مختلفاً، يبدو أصفى وأوضح وأقرب إلى الفهم، ولا يحتوي على أي شيء غريب، مجنون أو مثير للسخرية. لكن لدى سدهارتا أشياء أخرى تبدو مختلفة عن أفكاره. أعني: يديه وقدميه وعينيه، جبهته وتنفّسه وابتسامته، تحيّته ومشيته. منذ انتقال غوتاما المتعالي إلى نرفانا، لم ألتق بأي إنسان أحسستُ في حضرته: إنّ هذا قديس! وحده هو، هذا السدهارتا، ألفيته على هذه الحال. وإن يكن تعليمه غريباً، وإن تقع كلماته على السمع كالبلاهة، إلاّ أنّ نظرته ويده، إهابه وشعره، وكلّ شيء فيه يتألّق صفاء، يتألّق سكينة، يتألّق بهجة ورفقاً وقداسةً، لم أر مثلها لدى أي إنسان آخر، منذ وفاة معلّمنا المتعالي.)

Arab_Books

وإذ استرسل غوفيندا في هذه الأفكار، وفي قلبه منازعة، حنا مرّة ثانية على سدهارتا، مجذوباً إليه بالحبّ، انحنى كثيراً أمام الجالس ساكناً.

قال: «يا سدهارتا، صرنا رجلين هرمين. من الصعب أن نلتقي ثانية في هذه الهيئة. أرى، أيها الحبيب، أنّك وجدت السلام، وأعترف لك بأنّني لم أجده. فقل لي كلمة بعد، أيها المحترم، أعطني شيئاً، أستطيع أن ألمسه، أن أفهمه! أعطني شيئاً للطريق، فهي غالباً شاقة، طريقي، ومظلمة أيضاً، يا سدهارتا.»

صمت سدهارتا ونظر إليه بالابتسامة الهادئة، الدائمة الثبوت نفسها. وغوفيندا حدّق إلى وجهه بخوف وشوق، وفي نظرته ألم، وبحث أبدي، لا يفضي إلى العثور على شيء.

شاهد سدهارتا ذلك كلّه وابتسم.

«احن علي! -همس في أذن غوفيندا- احن علي أكثر! ادن منّي، هكذا! أكثر! قبّلني على جبيني، يا غوفيندا!»

وبينما انصاع غوفيندا لكلامه مذهولاً، إنما مجذوباً إليه بفعل إلهام وحبّ كبير؛ بينما دنا منه، حانياً عليه، ولامس جبينه بشفتيه، جرى له أمر عجيب رائع. بينما كان ما يزال يفكّر في كلمات سدهارتا الغريبة، بينما كان ما يزال يحاول أن يفكّر، عبثاً وعلى مضض، في نفي الزمان وتصوّر السانسرا والنيرفانا وحدة، بينما تصارع فيه ازدراء معيّن بكلمات الصديق مع حبّ عظيم له وإجلال عميق، جرى له هذا:

كفّ عن رؤية الصديق، ورأى مكانه وجوهاً أخرى، كثيرة، سلسلة طويلة، نهراً جارياً من الوجوه، مئات وآلافاً... وجميعها تظهر وتذوب،

Arab_Books

وتبدو مع ذلك موجودة في وقت واحد، جميعها تتبدّل وتتجدّد بلا انقطاع، وتبقى مع ذلك كلّها سدهارتا. رأى وجه سمكة، سمكة شبّوط بفم مفتوح في ألم شديد، سمكة محتضرة، بعينين تنطفئان -رأى وجه مولود جديد، أحمر ومليئاً بالغضون يهمّ بالبكاء- رأى وجه قاتل، يغمد السكين في جسد إنسان -ورأى هذا المجرم في الثانية نفسها جاثياً على ركبتيه والجلاد يقطع هامته بضربة السيف- رأى أجساد رجال ونساء، عراة، في أوضاع الحبّ المهتاج وصراعاته- رأى جثثاً ممدودة، هامدة، باردة، فارغة- رأى رؤوس حيوانات، خنازير، تماسيح، فيلة، ثيران، طيور- رأى آلهة، رأى كريشنا وأغني- رأى كلّ هذه الأشكال والوجوه وبينها ألف علاقة وعلاقة، كلّ واحد منها يساند الآخر، يحبّه، يكرهه، يدمّره، يولّده من جديد، كلّ واحد منها إرادة للموت، واعتراف شغف مؤلم بالفناء، ومع ذلك لا يموت أيّ منها، بل يتحوّل وحسب، يتولّد أبداً من جديد ويتّخذ دائماً وجهاً جديداً، من دون أن يفصل بين الوجه والآخر أي فاصل زمني- وكلّ هذه الأشكال والوجوه ترقد، تنساب، تتولّد، تسبح متباعدة، تتداخل، وفوقها جميعاً يمتدّ على الدوام شيءٌ رقيق، هفهاف، إنما كائن وموجود، مثل طبقة رقيقة من الزجاج أو الجليد، مثل إهاب شفّاف، مثل قشرة أو قالب أو قناع من الماء، وهذا القناع يبتسم، وهذا القناع هو وجه سدهارتا المبتسم، الذي لامسه، هو غوفيندا، في هذه اللحظة بشفتيه. فرأى غوفيندا أنّ ابتسامة القناع هذه، ابتسامة الوحدة هذه، المشرفة على التشكّلات الجارية، ابتسامة التزامن هذه، المشرفة على آلاف الولادات والوفيات... ابتسامة سدهارتا هذه، هي تماماً كابتسامة غوتاما، بل هي عينها ابتسامة غوتاما الهادئة، الرقيقة،

Arab_Books

الملغزة، الرحيمة، ربّما، المتهكّمة، ربّما، ابتسامة غوتاما البوذا الحكيمة، ذات الألف معنى، كما شاهدها، بنفسه، في إجلال مئات المرّات. وعلم غوفيندا: هكذا يبتسم الكاملون.

ظلّ غوفيندا واقفاً، وهو لا يعود يعلم بالزمان: أدامت هذه الرؤيا ثانية واحدة أم مائة عام... ظلّ واقفاً، والأمور تختلط عليه: أثمّة شخص يُدعى سدهارتا وآخر يدعى غوتاما، أثمّة ذات هي الـ أنا وأخرى هي الـ أنت؟... ظلّ واقفاً، كما لو أنّ سهماً إلهياً أصابه في صميمه بجرح يذيق المرء ألماً عذباً؛ مسحوراً ومذوّباً في صميمه، ظلّ واقفاً، أمداً قصيراً بعد، منحنياً على وجه سدهارتا الهادئ، الذي قبّله قبل لحظات، الذي كان قبل لحظات مسرحاً لكلّ التشكّلات، للصيرورة والكينونة كلّها. لم يتغيّر الوجه، بعدما انغلق سطحه ثانية، وتوارى ما شفّ تحت إهابه من عمق به ألف تلفيف ودلالة. ابتسم هادناً، ابتسم خافتاً، وديعاً، رحيماً جداً، ربّما، متهكّماً جداً، ربّما، تماماً مثلما ابتسم هو، المتعالي.

انحنى غوفيندا كثيراً، وعلى وجهه العجوز تنهمر دموع لا يعلم بها، وفي قلبه يتّقد الشعور بأعمق حبّ وأكثر إجلال دعة. كثيراً انحنى، حتى لامس الأرض، أمام الجالس ساكناً، أمام من ذكّرته ابتسامته بكلّ ما أحبّه يوماً في حياته، بكلّ ما نسب إليه قيمة في هذه الحياة وبكلّ ما قدّسه.

Arab_Books

الفهرس

الجزء الأول

ابن البرهمي 7
عند السمانيين 17
غوتاما 29
يقظة 39

الجزء الثاني

كمالا 47
عند الأنام الأطفال 63
سانْسرا 73
في جوار النهر 83
المراكبي 95
الابن 109
أوم 119
غوفيندا 127

Arab_Books

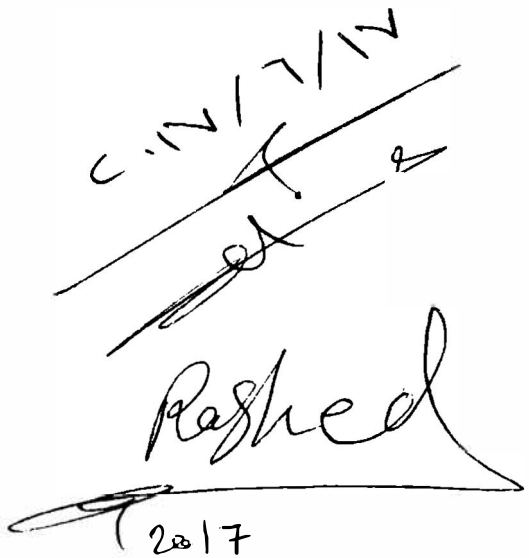

Arab_Books

Arab_Books

- ولد في ٢ تموز ١٨٧٧ من أبوين مبشّرين في الهند.
- ترك دراسة الكهنوت الإعدادية، وعمل ميكانيكياً، ثم تحوّل نهائياً إلى الكتابة.
- تجنّس بالجنسية السويسرية بعد أن استقرّ فيها بعد عام ١٩١٩.
- ينتمي إلى الرومانسية الألمانية، ويجسّد في أدبه الشعور بالعزلة الروحية.
- من أبرز مؤلفاته "بيتر كامنزينت" ١٩٠٤، "ديميان" ١٩١٩، "ذئب البراري" ١٩٢٧، "الموت العاشق" ١٩٣٠.
- نشر ديوانين من الشعر (١٩٢٢) و(١٩٢٩).

مكتبة نوبل

١٩٤٦

Tele: @Arab_Books